ارتقاء المرأة

LA PROMOTION DE LA FEMME

تأليف الكاتب الفرنسى الكبير لوسيان روميه Lucien Romier

لوسيان روميه من اولئك الكتاب الذين تتمثل فيهم خصائص العبقرية الفرنسية أبلغ تمثيل . فهو رشيق العبارة واضح الأسلوب مقتصد فى اللفظ يجمع إلى الدقة والتناسب قوة المنطق واتساع مدى الفكر . وهو ديموقراطى المزاج حر النزعة يشترك والكاتب الايطالى الشهير (فيريرو) فى الدعوة إلى مقاطعة الأنظمة المتطرفة كالشيوعية مثلا بالمحافظة على النظام النيابى — كما تفهمه فرنسا — وتركيزه على قواعد ثابتة وتكوين طبقة من رجال الثقافة العلمية والأدبية الممتازين يتصدرون لقيادة الراى العام ويستخدمون ثقافتهم ورءوس أموالهم فى الذود عن حق الملكية . ونظام الأسرة . وحرية الفكر . وتمثيل الشعب . وسائر أغراض الديمقراطية . ثم يسعون فى الوقت نفسه لتأليف ولايات أوربا المتحدة على قاعدة التحالف الاقتصادى وهدم الحواجز الجمركية وتأسيس جبهة مشتركة تحمى الحضارة الاوربية من طغيان آسيا وأمريكا . وقد عالج لوسيان روميه معظم هذه الموضوعات فى مؤلفاته : « الامة والحضارة » و « تفسير العصر » و« من الذى سيسود : أوربا أم أمريكا ؟ » وفى شتى المقالات التى ينشرها فى دوريات الصحف الباريسية . وهو فى كتابه « ارتقاء المرأة » الذى نلخصه اليوم يبدو لنا كمفكر عملى يجيل فى مختلف مظاهر الاخلاق النسوية الجديدة فى أوربا وأمريكا نظرة مدققة فاحصة ثم يسجل هذه المظاهر على حقيقتها فى حيدة تامة وأمانة مطلقة رغبة فى إعطاء صورة صادقة عن مبلغ تطور المرأة الأوربية منذ نهاية الحرب الكبرى الى يومنا هذا

* * *

obeikandl.com

وقبل أن يشرع لوسيان روميه فى تحليل شخصية المرأة الحديثة يمهد لتحليله ببحث مستفيض عن الرجل والمرأة عامة . عن موقف الجنسين من حيث علاقاتهما بالطبيعة الأبدية وأحكامها . والغريزة وتفاعلاتها وقانون التناسل وواجب حفظ النوع والسهر عليـــه . فيقول ان الرجل يخلق المرأة والمرأة تخلق الحب

لاتكاد تستفيق العاطفة الجنسية فى جسم الرجل وعقله حتى تستدق اعصابه ، وينمو خياله ، وتزدهر فيه بغتة ملكات الشعر . فتبدو له الطبيعة فى حلة رائعة من جمال . فينقل الطرف بين النساء ويحلم . يحلم لا بامرأة محدودة بل بالمرأة ككائن أبدى . المرأة كاقوى العناصر غرابة وحياة . يحلم بها . وتطوف شخصيتها العجيبة بمسرح خياله فيضفى عليها كل ما اخذته عينه من جمال . يرى فيها شعر الوجود ويلمح من خلال نظراتها نفس ذلك السر الفاتن العميق الذى يحسه أمام الطبيعة كل يوم فيكبر من شأن المرأة ويتغنى بها ويلتمس فيها كل ماهو طيب وجميل . وهكذا يخلقها تصوره الشعرى خلقاً . أو تخدعه العاطفة الجنسية فتزينها له تحقيقاً لغاياتها الخالدة

أما المرأة فتفتن فى التجمل . وتفتن فى الدعاب . لتظفر بالرجل ويزيدها الدهاء غرابة . ويزيدها التقلب غموضاً وسحراً . فبينما هى باسمة مقبلة ؛ اذا بها مقطبة معرضة تدافع عن نفسها جهدها . قبل أن تسلم بشىء . وتعذب الرجل ما استطاعت قبل أن تهوى بين ذراعيه . وهى انما تقاوم الرجل لتختبر موتحسن اختياره وتكفل لها ولأولادها فى المستقبل حياة سعيدة مطمئنة

هذا الاسلوب فى المقاومة هو الذى يغرى الرجل بها ويلهبه ، ويخلق الحب فى نفسه ويخضعه ، ويوفق فى النهاية بينه وبين المرأة فى سبيل تأسيس الاسرة وحمايتها

تلك كانت طريقة المرأة فى اجتذاب الرجل لما أن كانت الحياة فطرية بسيطة . والحضارة زراعية أولية . والمرأة جاهلة ضعيفة تعيش عالة على أهلها . وتظل ترتقب الساعة التى تحظى فيها بالزوج الذى يتعهدها ويرعاها ويقوم على شؤونها وشؤون ابنائها فى دائرة الاسرة

كانت المرأة تشعر بعبوديتها الاقتصادية فتحاول أن تستميل الرجل وتستبقيه

وتتسلط عليه بأسلحه الضعيف العاجز . فتفرط فى التدلل والتجمل . وتغلو فى اصطناع اللذة ، وتمنى الرجل ثم تنصرف عنه . تصارحه ثم تمكر به . تشعل غيرته ثم تحنو عليه . وهى تعلم علم اليقين أن من هذه المناورات ينشأ الحب العاصف الذى يخضع لها الرجل ويمكنها منه

وعليه فموقف المرأة هذا كان يسمم الاسرة ويقيمها على قاعدة المصلحة

وكثيراً ما كانت المرأة تتزوج مرغمة بدافع الحاجة والعرف فما ان تستيقظ فيها عوامل الفكر والملاحظة وتشهد حقيقة الزوج الذى اكرهتها المقادير على التقيد به وكيف أنه لم يعد يحبها . ولم يعد يحفل بارضاء عاطفتها حتى تبدو لها الاسرة كسجن مظلم ضيق فتنزع الى حياة أخرى وتتطلع الى رجل آخر . وبما انها تحرص أشد الحرص على الا تفقد زوجها واسرتها ومركزها الاجتماعى المادى الوطيد فهى تعمل على ارضاء شهواتها فى الخارج وارضاء واجبها الزوجى فى الداخل فتألف النفاق وتعتاد المواربة والغش . وتوزع قواها بين مختلف الاهواء والميول فتصبح الاسرة وقد انحلت روابطها وتضعضع بنيانها فريسة شر الفواجع التى لا يكفر عنها غير الاطفال الابرياء المساكين

ومما لا يقبل الريب أن الفتاة التى تعيش فى كنف والدها وإخوتها وأقربائها لا مهنة لها ولا مورد تضطر للنزول عن حقها فى اختيار الزوج . فهى لاستعبادها الاقتصادى مستعبدة من ناحية العاطفة أيضاً لا تستطيع أن تقترن بالرجل الذى يختاره قلبها . وهى لعجزها الاقتصادى تقيم المال أكبر وزن فتؤثر الزوج الغنى على الفقير وتضحى فى أغلب الاحايين بالاحساس الصادق والخلق الكريم فى سبيل النعمة والرفاهية

فالفتاة الثرية التى تربت تربية منزلية والتى يغنيها ثراؤها عن العمل تستعبد لتقاليد بيئتها وتدفع الى الزواج من الرجل الثرى

والفتاة المنتمية إلى الطبقة الوسطى تتطلب هى أيضاً الزوج الثرى فان فازت به اطمأنت الى المستقبل وإلا رضيت مكرهة برجل من طبقتها . وما دام زوجها على قيد الحياة فهى آمنة فاذا ما قضى تكفل بها أبناؤها أو أهلها أو ذهبت

تبحث عن عمل لا طاقة لها عليه ولا معرفة ولا استعداد وكثيراً ما تختار أهون السبل فتحترف الدعارة

أما بنت الشعب فقد كانت على الدوام اسعد وأشقى من اخواتها حظاً ومصيراً فهى اما أن تتزوج فيسرى عليها بعض مايسرى على فتاة الطبقة المتوسطة ، واما أن تكون قد نشأت على العمل الحر ومارسته الايام الطوال فاعتادته ولم تعد تخشى المستقبل ، وأما أن يكون العمل قدأنهكها وأيأستها منه قلة الربح فأعرضت عنه وبهرتها مظاهر الترف فضعفت واستسلمت فجرفها هى الاخرى تيار الدعارة

ذلك ما كان يقع بالامس وما يزال يقع بين الشعوب المتأخرة حتى الآن . أما اليوم فالحضارة الصناعية قد بدلت كل شىء . ظهرت الآلات فاستغلها أصحاب رءوس الاموال وأرادوا أن يضاعفوا أنتاجهم ففتحوا أبواب المصانع لاكبر عدد من العمال والميكانيكيين فتضخم الانتاج وتنوع ، وبدأت المعامل تخرج أعجب أدوات الترف وأروع وسائل المتعة والنعيم

اخترعت الطيارات والدراجات والسيارات والسينما والفونوغراف والراديو فاحس الجميع أن قد تشعبت الملذات وتعددت الحاجات والمطالب وأن الانسان كلما ازدادت قدرته على الاستمتاع نمت فكرة الحرية فى النفوس وتعشقها الرجال والنساء على السواء

ولكن الظاهرة البارزة فى الحياة الاوربية والامركية اليوم هى أن الفرد حر فيما يتعلق بملذاته وملاهيه ولكنه فى الواقع عبد للعمل ونظامه

فاصحاب المصانع ـ اوربيين كانو أم أمريكيين ـ يجتهدون فى توزيع عملهم وتنظيمه تنظيما شاملا دقيقاً بحيث يستطيعون انتاج الاصناف « بالجملة » انتاجاً وفيراً يفرض استهلاكه على اغلبيات الشعب فرضاً

هذا النظام يحدد للعامل فى المصنع عمله ، وفى الاسرة ادوات منزله ، وفى الخارج ميوله واذواقه ، ولا يمنحه غير حرية التمتع المادى المحض ، أى حرية الذهاب الى السينما ، وركوب السيارة ، وسماع الراديو ، ومخالطة أى الناس شاء

فالمجتمع الاوربى والامريكى اليوم يتجه نحو « النظام التجمعى » نحو تساوى المجموع وخضوعه فى دائرة العمل . وحرية الفرد واستقلاله فى دائرة الملذات .

وبما أن العمل هو الذى يأتى بالنقود ، ويسهل حرية التمتع بأفانين الحضارة الجديدة ، ويشعر الفرد بجدارته واستحقاقه ، ويخوله حق الاستقلال بمنازعه ومشتهياته فقد رأت المرأة أنها ستفقد سلطانها على الرجل ، وتفقد ثمرة الحضارة الناشئة ، وتظل فى البيت مستعبدة ، إذا هى لم تخرج للعمل كالرجل ، وتأخذ قسطها من نعيم الحضارة ولو أدى بها الأمر الى النزول عن شخصيتها والاذعان للنظام السائد نظام العمل الصارم التجمعى . فالمرأة العصرية تهجر بيتها لتجد فى الخارج العمل والرجل معاً . . . وهى لم تهجر البيت الا لأن الرجل ينفق فى المصانع والمكاتب والرحلات والملاهى ضعف الساعات التى كان ينفقها فيها سابقاً . . . .

وعليه فاتصال المرأة بالرجل فى كل شىء . فى العمل واللهو . فى المصنع وملعب الرياضة ، فى المكتب ودور السينما ، فى الجامعة والمسرح ، خفف من وطأة الحب القديم ، بل أزال الحب القديم القائم على الغلو فى التحمس والغيرة والشهوة والشاعرية ، وأحل محله الحب المتزن العميق بشعره البسيط الصادق . وزيادة على ذلك فقد ولد ذلك الاتصال بين الرجل والمرأة ضربا من الصداقة الصريحة النزيهة لم تكن مألوفة من قبل . فأصبحت الفتاة تفهم الشاب وتفطن لأالاعيبه وتحذره وتقدره اذا استحق التقدير ، واصبح الشاب يحترمها ويتهيبها ولا يجد فائدة من اتخاذ الاساليب القديمة فى استمالتها واغرائها . فهى اليوم تظل عانساً اذا شاءت الاحتفاظ بحريتها ، أو تختار لها الزوج الذى تريد فان خاب أملها فيه طلبت طلاقها منه وعادت تباشر عملها ، وقد تتزوج وتطلق ثلاثاً أو أربع مرات كما تفعل معظم النساء الامريكيات . وهذا ما يقلق المفكرين على مصير الاسرة ، فبعضهم يلعن الحضارة ويقول أنها قتلت فكرة الزواج ، والبعض الآخر يحمل على المرأة ويصرح بأن حريتها هدمت الاخلاق ، وأنها مخلوقة متقلبة وحشية غريزية لاتحسن استخدام الحرية الا لتفوز بأوفر قسط من الرذائل والشهوات ، والحقيقة — فى عرف لوسيان روميه — ان الحرية لاتهدم الاسرة والعمل لايهدم الاخلاق . وان المرأة التى لم تعد فى حاجة لرجل يعولها تظل — بحكم وظيفتها الطبيعية — نزاعة الى الامومة والزواج

ولكن التطور العظيم الذى وقع هو أن المرأة اليوم تقف موقفين واضحين : فهى اما ان تستغل الحرية فى سبيل الرذائل والشهوات . واما ان يكسبها العمل احساسا بالاباء والعزة فتقبل على الزواج مختارة وتحاول أن تبنى الحياة الزوجية على الحب الصادق والكرامة والاخلاص المتبادل ما دامت تشعر أنها لم تضطر الى تلك الحياة اضطراراً وانها انما اختارتها بمحض رضاها ، وانها ليست عبدة للرجل ، وان فى وسعها العودة الى العمل توآ إذا لم تحقق فى الاسرة ذلك التفاهم الخلقى والعاطفى الصريح

فالاسرة الامريكية والاوربية اليوم قد تكون قصيرة الاجل ولكنها أقرب إلى الصدق والاستقامة مما كانت عليه فى أى زمن مضى والمرأة الحديثة الصالحة للعمل لاتجد فائدة فى خداع زوجها والكذب عليه والانصراف لشهواتها اذ ما عليها — لو أنها كانت فاسدة الميول — الا أن تظل فتاة عانساً حرة مطلقة القياد

وهكذا قد خدم العمل الاسرة وأنقذ المرأة من النفاق فهى اما صالحة أو طالحة ، فاضلة أو متهتكة ، نزيهة أو غادرة . بعكس المرأة القديمة التى كانت تجهد خيالها المنحط وعبقريتها النسوية المستعبدة ، كى تقرن الفضيلة بالرذيلة والصدق بالرياء ، والوفاء بالغش ، والعطف بالازدراء والكراهية ، احتفاظا بالزوج الذى يعولها والاسرة التى بدونها لا تستطيع أن تعيش !

ومن اجزل الفوائد التى عاد بها استقلال المرأة على المجتمع أن سلطان المال على الزواج قد ضعف وأن الشاب الغنى لم يعد فى وسعه التفاخر بامكان احتلال قلب أى فتاة ، وأن الفتاة التى تمارس مهنة ما تتروى وتراجع نفسها مرات اذا ما اعتزمت الزواج وخيرت بين فتى مخاص نشـــط فقير ، وبين أنانى عاطل ثرى

والمشاهد فى الحياة الغربية اليوم أن الشاب والفتاة يقيس كل منهما شخصية الآخر بعين مدققة ، يميز بين قوتها وضعفها ، بين عجزها عن الكفاح ومقدرتها عليه ، بين ثباتها على الحب أو استهتارها به ، وهذا مايثبت دعائم الزواج ولا يجعله مغامرة إحساسية ومادية كما كان

فاذا كانت حوادث الطلاق — برغم ذلك — قد تضاعفت ، فالسبب لا يرجع إلى أن الزواج القديم كان أصلح من الزواج الراهن بل إلى أن الزوجة العصرية — التى لا تستبقيها فى الاسرة المزعزعة المتداعية عواطفها الدينية أو حبها لأبنائها ورغبتها فى التضحية بنفسها من أجلهم — تجد اليوم كافة الوسائل الشرعية التى تحررها من زواج فاسد ، وكافة الموارد المادية التى تكفل لها ولأطفالها حياة شريفة حرة لم تكن لتحلم بها فى العصور الماضية ! . .

ومن جهة أخرى فاندماج المرأة الحديثة فى مختلف فروع العمل ، واتصالها بالرجل ، واشتغالها معه جنباً إلى جنب ، قد هذب العاطفة الجنسية ولطفها ، واستل منها غلظتها الوحشية الأولى ، واستوضح خفاياها ، وردها إلى جوهرها الطبيعى البسيط ، فلم تعد ثمة أسرار جنسية تثير فضول الجنسين وتؤلب الواحد منهما على الآخر ، وتحيلهما شبه حيوانين مفترسين ، بل قد سقط القناع عن وجه كل منهما فتعارفا ورائدهما العقل والملاحظة اليومية المتيقظة

فالحب اليوم لم يعد كما كان بالأمس أعمى ، تحف به الخيالات وتكتنفه الاكاذيب ، بل هو بصير معتدل ذكى ، وليس الحب الجاهل المستعبد كالحب المتحضر المتعلم الحر

ولرب معترض يقول ولكن زوال الفوارق بين الجنسين ، واختلاطهما فى معاهد العلم وأمكنة العمل ومعرفة الرجل بطبيعة المرأة والمرأة بخلق الرجل ، قد يجرد المرأة من غموضها الفاتن ، وسحرها القديم فيخنق شعر العواطف . ويقتل الحب . وهذا كلام صحيح فى ظاهره ، ولكن الواقع ينكره

اذ ليس الجهل بطبيعة المرأة هو الذى يكسب الحب قيمته الغالية بل هو الحياء . . .

والمرأة تدرك بسليقتها تمام الادراك أنها لو نزلت عن حيائها لاصبحت هبة جسمها للرجل لاقيمة لها . ولعافها الرجل وازدراها واستهتر بلذة لا يكلفه الحصول عليها أى مجهود

فالحياء مقترن بغريزة المرأة هو الذى يسوق الرجل إلى الحب . إلى التعبير عما فى نفسه وايثار مخلوقة على أخرى إيثاراً قد يفضى إلى الزواج

واذن فلا محل للخوف على الحب من المعرفة المتبادلة ، ولا على الزواج من الاختلاط ولا على الأسرة من الحرية ومهما صرخ المحافظون فلن يرجعوا بالمرأة الحديثة الى الوراء

أجل . قد يفقد الزواج من تأثيره على مر الايام ، وقد تتبرم المرأة به ، وقد يندر وقوعه فى مجتمع نساؤه أحرار عاملات متعلمات ، يفهمن الرجل أكثر مما يحب ويحذرنه ، ومع ذلك فالزواج رغبة فطرية باقية . سيبقى الزواج ولكن عقلية طلابه هى التى ستتبدل ، والراغب فيه سيجتهد قبل كل شىء فى ألا يخدع من شريكه وذلك بأن يتجنب هو أيضاً خديعته فيستقيم بنيان الأسرة على النزاهة والصراحة والصدق وهكذا يكون تحرير المرأة وارتقاؤها قد ارتق بالجنسين معاً : المرأة والرجل!

obeikandl.com

العبقرية والحب

ذكريات مدام جورجيت لوبلان

Souvenirs de Mme Georgette Leblanc

بعض خصائص العبقرية

يحار العقل العادى فى ادراك سر العبقرية ونظامها . وهل تسرى عليها القوانين والمصطلحات التى وضعها علماء الاخلاق والمتشرعون ، أم هى عنصر من عناصر الطبيعة الجامحه ، وقوة تحمل فى تضاعيفها قانونها الخاص الذى يهزأ بكل عرف وقانون ؟ . .

ان من أظهر صفات المجتمعات البشرية حبها الجمود واخلادها الى الراحة والسكينة ، واعتيادها العيش فى ظل التقاليد . وتبرمها بالجهود الكبيرة التى لابد يتكلفها الناس اذا ما نزعوا الى التجديد أو أقدموا على الطفرة

لذلك هى تنفر من كل متطرف وتعطف على كل معتدل

تطمئن لاشباه المفكرين ذوى العقول المترددة والاعصاب الباردة ، وتخشى العباقرة ذوى الاذهان الوثابة ، والمخيلات الحارة المدمرة

تعترف بالفئة الاولى ، وتزهو بها ، وتمنحها المجد والمال ، وتجحد الثانية وتنكرها وتضطهدها وتفرض عليها الصمت والذل والجوع !

والسبب فى هذا هو أن لكل عبقرى صحيح مثلا أعلى . يتعصب له ، ولا يتسامح فى تطبيقه ، ويحيا لاجله ، ويكافح فى سبيله ، ويرتضى الموت عن طيبة خاطر للذود عنه !

والمجتمع يكره المثل العليا وأصحابها لشعوره بالفارق العظيم بين مقياس جهده ، ومقياس جهد العبقرى . بين ما يطالبه به العبقرى من قوى هائلة لتحقيق المثل الاعلى ، وبين ما يستطيع المجتمع القيام به . . .

على ان المجتمع مستعد لتقدير المثل العليا ، ولكن متى اقتنع بها المعتدلون على مضى الزمن ، وأثبت فحصهم المتلكىء البطىء انها صالحة ، ثم شرعوا فى تحقيقها بعد أن يكون الداعى اليها قد قضى شهيد عنادهم وغبائهم وضحية كسل الاغلبيات وجمودها — عندئذ يشاد بذكره ، ويقر بفضله ، وتنشأ باسمه المشروعات وتنصب له التماثيل ، وهكذا يصبح المجد أو يمسى — كما قال بلزاك — شمس الموتى ! .

فسواء أكان العبقرى مصلحاً أم فيلسوفاً أم شاعراً أم قصصياً أم فناناً فقوام خلقه الوثبة والاستحداث والتجديد ، مع الايمان بنفسه وبصواب مايدعو اليه وهو لايجدد فى العرض بل فى الجوهر ، ولا يستحدث فى الفروع ، بل فى الأصول . ينبذ التقاليد ظهرياً ، وينفض عن كاهله عبء القرون ، ويتقدم عصره ، ويرسم للانسانية طريق المستقبل !

وبما أنه يتقدم عصره فهو إذن يرى مالا يراه عصره . وقد تكون العلوم والفنون مزدهرة فى عهده ، ولكنه يجتازها غير محتفل ، وفى أخذة من أخذات النفس ، وبارقة من بوارق الاشراق الروحى ، تقع بصيرته على الفكرة العميقة الخصبة ، أو الاصـــلاح الاجتماعى الثورى ، أو الطابع الفنى الطريف ، أو الاستكشاف العلمى الخطير ، مما ينفق غيره من النبغاء العاديين أعمارهم فى سبيل الوصول اليه عبثاً . .

اذ العبقرى غريزة والهام ، والنابغة ارادة وصبر ودأب . الاول يبتكر ويخلق حراً ، لان عمل الطبيعة الممثلة فيه ان تبتكر وتخلق حرة ، أما الثانى فيمثل المجتمع ، يحترم الماضى ، ويهتدى به ، ويلم بجميع مخلفاته ، ولا يبتكر الا فى دائرته ، وفق روحه السائدة ، وأساليبه المقررة فى البحث والتفكير . .

ولا يجب أن يفهم مما تقدم أن العبقرية الفذة هبة عاطفية محضة ، وان مركزها فى الغريزة والعقل الباطن فحسب وانها قد تستغنى عن الثقافة اطلاقا ، كلا . انها على قدر ماتنهل من موارد الثقافة العامة يتسع مدى بصيرتها وتترامى آفاق تجديدها . لذلك نحن لا نعرف عبقرياً أصيلا خشى أو يخشى من الثقافة على مواهبه الخاصة ، بل المشاهد على النقيض أن العبقرى أشد الناس إصابة بالشره

العقلي ، يستوعب الثقافات ويهضمها مهما اختلفت وتعددت ، يفتق بها خصائصه ، ويشحذ غريزته وعقله ، ويقف على مخلفات العصور ليضيف اليها ما توحي به ملكاته المستقلة الخالقة !

* * *

أنانية العبقري

ولكن كيف يعيش العبقري ؟ كيف يفكر ويخلق ؟ بل كيف يلهم ويحب ؟ إن لكل عقل كبير مزاجه الخاص . وعاداته وطباعه ، وميوله واهواءه ، والحوادث التي مر بها ، والاحساسات التي صادفها ، غير أن الملاحظ بالرغم من هذا ان هناك ظاهرة عاطفية أساسية يشترك فيها العباقرة جميعاً ويعرفون بها ، وهي الانانية !

وأنا سأحدثك أيها القارىء عن مأساة فكرية ووجدانية احدثتها أنانية عبقري . سأحدثك عن أديب فذ هو الكاتب والشاعر والروائي البلجيكي موريس ماترلنك وعن حياته الخصوصية واسلوبه في التفكير والابتكار . وغرامه العظيم بالمرأة العظيمة التي استوحاها فنه وفكره مدام جورجيت لوبلان . فلقد تحابا ، وتفاهما . مدى عشرين سنة ولكنهما اختلفا فعاد الرجل الى وحدته . وعادت المرأة الى سابق حياتها ولكنها الآن وقد هفت نفسها الى غرامها الكبير ترجع بذهنها الى ايامها الرائعة وتستنبش ماضيها وتقص علينا ذكرياتها في كتاب أثار ضجة عظيمة في الاوساط الادبية في اوربا كلها

ونحن لم نقصد بتحليل هذا الكتاب وتلخيصه ان نسرد حكاية غرامية لذيذة بل نحاول النفاذ الى جوهر شخصية عبقري ، وان نفهم ماقيمة الحب في نظره وهل في وسعه ان يجمع بين حب المرأة وحب العمل الادبي ، أو انه يضحي في سبيل المرأة ولو بجزء من العمل الادبي . وهل في مقدوره ان يحبها لذاتها وان يحترم كيانها المستقل ، وألا يسطو على افكارها وارائها وإحساساتها ونظراتها في الناس والحياة فيسلبها إياها ويدعيها لنفسه ويحولها الى مادته الخالقة وعمله الادبي ؟.

كما أننا سنجتهد في بحث شخصية أمرأة ممتازة لندرك الاسباب والدوافع التي

حملتها على هوى العبقرى . وما اذا كانت أحبته حقاً ، وما اذا كان فى وسع أية أمرأة أن تحب عبقرياً ، وما إذا كان العبقرى يأبه للحب والعواطف ولو كان أديباً أرصد حياته على رسم العواطف والتغنى بالحب !

* * *

موريس ماترلنك شاعر رمزى ، وكاتب صوفى . شعره مقطوعات رقيقة عذبة ، وحكايات ساذجة بريئة يرمز فيها الى قوى القدر الخالدة كالحب والبطولة والايمان والتضحية والموت وآثارها فى سحر الحياة وتجميل معناها وتقديس غاياتها ، والسمو بالانسانية ولو على انقاض نفسها

وهو ناثر بليغ تسترعيه أدق الميول وتستهويه أخفى الاحساسات الكامنة خلف ظلمات الواقع فيقبل عليها ، ويتأمل فيها ، تأملا صوفياً عميقاً من حيث علاقتها بالأبد واتصالها بجوهر الطبيعة الذى لا يتبدل

فهو لا يرسم عواطف الفرد بالنسبة الى نفسه بل عواطف الفرد والمجموع بالنسبة الى الازل ، وذلك هو مظهر العبقرية الصحيحة التى لا تستوقفها الاعراض الزائلة بل تطل على الحياة الكبرى فتندمج تواً فى قوانينها الثابتة ومادتها الأولى وأصلها الآلهى

وان درامات ماترلنك (كليلياس وملیزاند) و (البرنسيس مالين) و (اجلافين وسليزيت) ورسائله فى طباع (النساء) وفى معنى (الصمت) و (أدب الصوفية) و (الروح الفاجعة فى الحياة اليومية) وغيرها لتدل أبلغ الدلالة على أن الرجل لا يكتب متجه البصر نحو عصره بل مشرئب الفكر والخيال نحو الحياة الانسانية الكاملة

* * *

وكانت جورجيت لوبلان قد سمعت باسمه ، وطالعت مؤلفاته الأولى ، وأعجبت بها أشد اعجاب وتمكن منها أسلوب ماترلنك ، وفنه القائم على مزج الحقيقة بالحلم . والشعر بالفلسفة . فاحبته . احبته دون ان تراه ، أحبت فيه الشاعر الذى استطاع أن يعبر عن آمالها وآلامها . عن خلجات صباها ومطامح نفسها ،

أحبت فيه خياله الرائع . ومختلف الصور الذى أبرزها هذا الخيال . أحبت فيه ما كان ينقصها وما أحست أنها لو استولت عليه لاكتملت شخصيتها غاية الاكتمال .

وكانت فتاة فى العشرين ، على جمال رائع ، مغرمة بالازياء الفنية الغريبة ، مفتونة بالعواطف الانسانية الكبيرة ، خيالية النظرة الى الحياة ، تلتمس الشعر فى كل شىء . وتؤثر الشعر على كل شىء ، نزاعة الى الحرية ، تواقة الى المجد . شغوفا بتمثيل أدوار بطلات الحب والألم والثأر والتضحية على مسرح الواقع ، ملتهبة الاعصاب . فوارة المزاج ، متطرفة الميول ، على شىء كبير من النبوغ فى الكتابة والأدب مثقفة ، ذكية ، خليقة فى تحفظ ، طائشة فى اعتدال ، تهوى الموسيقى والتمثيل ، وتعمل على أن تصبح ذات يوم مغنية وممثلة فذة شهيرة

هذه المخلوقة العاصفة رأت فى فن ماترلنك من الهدوء ، والرصانة ، والتأمل ، والحلم ما استهواها واشعرها بان لاسلام الا هنا . ولا استقرار ولا أتزان ولا اكتمال إلا بقرب هذا الرجل العجيب !

قدمت اليه فى حفلة . فما أن أبصرها حتى أحس هو الآخر بان ماينقصه ممثل فيها . واجالت فيه طرفها الفاحص . فشاهدت رجلا مديد القامة . صلب العود ، عريض الكتفين . مفتول الذراع . له نظرة محجبة بعيدة ، وقسمات جافة . ويدان غليظتان كايدى الفلاحين ، منكمش ، وجل ، خجول . صموت !

راعها منه شبابه . وقارنت بين رقة فنه وقوة عضلاته فاعجبها هذا التناقض وأثار حاسة الفضول فيها وأخضعها

وتبودلت بينهما الزيارات . وذهل ماترلنك لهبوط هذه المرأة الفجائى به . هذه المرأة الولوع بكل عظيم وجميل ، المرأة التى تقصد المتاحف وتقف برسوم أكابر المصورين ثم تفصل أثوابها على مثالها وتضرب فى شوارع باريس غير محتفلة وعليها وشائح الملائكة التى رسمها (جوزولى) و (فرا انجليكو) و (بورن جونس) واضرابهم

المرأة التى اذا خطرت فكأنها أميرة من أميرات عصر النهضة أو عذراء

فاتنة من عذارى الماء . أو المثل الحى لما يجب أن تكون عليه عروس الشعر الملهمة المبتغاة !

اطمأن اليها ماترلنك واستحكمت الصلة بينهما وبدأت حياتهما الجديدة ملحة نادرة من ملح السعادة . بل معجزة من معجزات التفاهم والسلام

كانت تحنو عليه حنو أم على ولدها . تسهر على راحته . تكفاؤه بعين عنايتها تسهل له سبيل العمل ، تتعهد شؤون البيت . تخلق له الجو الذى يعبـــده ولا يستطيع بدونه أن يفكر ويكتب : جو الصمت ، الصمت الشامل العميق المحاط بالالغاز . الصمت الداوى يحمى التأمل . الصمت الذى كانت تفهم جورجيت أسراره وكنوزه وتحدث عنه الشاعر فى رسائلها وتسوقه إلى بحثه وتحليله وتمزيق الحجب عن غوامضه

وكان عقلها النابه يمطر الكاتب أغرب الأفكار . وأدق الملاحظات . وأعجب الحقائق فى غير ما كلفة أو عنت

أما هو فقد كان مشدوها بها لايعرف كيف يخاطبها . أو يتودد اليها تودد الذكر للانثى . أو يعبر لها عما تكنه نفسه فى عبارات ملتهبة كمزاجها . كان يقف بها وقفة المتفرج المأخوذ . يستمرىء احاديثها ويعب فى فيضها . يروى به قلبه وعقله . وهو مغرق فى صمته . راسخ فى هدوئه منطو على نفسه . يخشى الكلام لئلا تتبدد افكاره . ويخشى اظهار الحب لئلا ينمو الحب ويصبح شغله الشاغل فينصرف اليه ويهمل واجب الفن والادب والانتاج ! . . غير أنه فى رسائله اليها كان يفرج عن نفسه ويستفيض فيقول :

« بى خوف من رؤيتك ثانيا . على أنى لاأتمنى غير هذا

« انى اخاف على حبنا أن يموت من جماله نفسه . كل شىء يقع لنا جديد وغير منتظر . لم نتخيله لا فى الحلم ولا فى الحياة . »

وكانت تقول هى فى رسائلها :

« انى ارغب فى سعادتك قبل كل شىء . أرغب فيها ولو تعارضت مع سعادتى . مذ عرفتك اثرتك على نفسى . لانى لااحب الا الخير الذى استطيع أن أفعله ولقد ادركت ان فى وسعك فعل الخير أكثر منى ! . . .

« انى احبك كما يحب الله يامورياس . أحبك كامرأة حقيقية فيها الكفاية من الألوهية كى تحب الها ! » وأيضا :

« ان حبنا ليس كحب الآخرين . ليس زهرة صغيرة غرستها شهوتان زهرة تنبعث من الارض وتتجه نحو الشمس ثم تنحنى وتموت . انه نفسه أرض وسماء وطبيعة ! »

ولما أن كان يبلغ بالشاعر الاعجاب مبلغه كان يكتب للمرأة التى لم يكن يرى فيها غير رمز الوحى والكمال هذه العبارات :

« لم أر حتى الآن فى أية رسالة من رسائلك جملة غير حية . جملة لم تحيى فيك وهذا لا يتأتى الا للارواح ذوات التصوع التام ، للمخلوقات ذوات الحقيقة العميقة والنور النقى . وهذا فى عرفى أعظم مميزاتك بل هو السبب الذى يخيل الى أنى أحبك من أجله فى جنون

« يبدو لى أنك من أشد الكائنات حياة

« أنت مخلوقة من حياة ونور

« كل ما تمسينه بيديك يصبح نوراً

« ليس فى وسعى أبداً أن أردد فى قوة كافية كل ماعلمتنى اياه ! »

كان ماترلنك يكتب هذه الكلمات ولكنه لم يكن ليفوه بمثلها . . . كان يبدى من الحب فى رسائله أضعاف مايبديه فى حديثه ومظهره . . . كان من السهل عليه ان يحلق فى سماء الشعر ويتمثل جورجيت ملكا كريماً ويناجيها ويقدسها ويتسامى بنفسه اليها ، فاذا ماهبط إلى الارض وشاهد المرأة أمامه مخلوقة من لحم ودم ، انعقد لسانه ، وفارقته شاعريته ، واستولى عليه الصمت ، وعامل جورجيت كما يعامل أى انسان ! . . لم يخاطبها يوماً بنفس العبارات الملتهبة التى كان يضمنها رسائله اليها وهو قابع فى زاوية مكتبه يفكر ويتأمل . كان أحب اليه أن يؤلف من غرامه قصيدة شعرية شائقة على أن يحيا هذا الغرام . كان أحب اليه أن يذكر حبها وهو بعيد عنها مخافة أن تستأثر به . وتتسلط عليه وتحرمه الاستمتاع بجمال غير جمالها . وكأنما كانت خطاباته اليها نفثات يرسلها إلى كائن فى عالم الخيال لا الى

أمرأة ذات جسم وروح . كان ماترلنك محمياً فى حصن صمته ، سابحاً فى ضباب فكره منصرفاً إلى عمله . يحذر فتنة عشيقته ويقاومها ، يفرغ من الكتابة فلا يهرع الى المرأة يلتمس فى أحضانها القوة والسلوى بل يطوف بارجاء البيت ، أو يلهو فى الحديقة كطفل يقطف الثمار ويروى الازهار ويقوم اعوجاج الشجيرات ، أو يتمطى ويأخذ فى القيام بعدة تمارين رياضية ، أو يصلح أدوات المنزل كنجار

وحتى فى تلك الساعات العذبة . فى تلك الساعات الفريدة لما ان كان يخرج وجورجيت إلى النزهة كان يحتفظ بصمته أيضاً . فيعلق على الأشياء والأشخاص بابتسامة أو كلمة . يرى المنظر الجميل فيمنحه نظرة عابرة ثم يفر منه تواً فتستوقفه المرأة وتتشبث به وتود أن تتذوق هـــذا الجمال طويلا برفقته ولكنه يتأفف ويقول لها : « يجب ألا نستنفد الجمال أبداً . . ! » ثم يمضى فى سبيله غير محتفل

كان مقتنعاً بالجمال الذى سوف يخلقه هو . كان يتجنب الافراط فى مشاهدة الطبيعة لئلا تشوش عليه خياله أو تشعره بعجزه عن تصويرها أو عن اضافة جمال فنه الى جمالها . . .

وهكذا اصطدمت جورجيت بشخصية العبقرى الخفية وأدركت بسليقتها أن الفضائل التى أحبته من أجلها هى التى قد تهدد فى النهاية هذا الحب وتقتله

أحست به على حقيقته . رجل متبرم متجهم مستوحش نفور يتذرع بالصمت لاينمى فى نفسه احساسه وفكره فحسب ، بل ليقصى عنه فضول الآخرين . ليقيم سداً منيعاً بينه وبين عواطف الآخرين ليطرد عنه أفراح الناس واتراحهم فلا تعكر عليه مجرى العمل الأدبى العظيم

العمل الأدبى ! أجل ذلك هودينه وغرامه وواجبه ! انه يسيل فى قصصه حباً ويعز عليه أن يلقى جورجيت بعبارة حب قوى واحدة !

انه يدخر الحب والعطف والرقة والحنو وسائر الانفعالات للعمل الأدبى العمل الأدبى الذى هو فى نظره كل شىء

ولو أنه شعر فى بدء العلاقة بأن حبه لجورجيت هو الحب العميق الصحيح ، الحب الذى لن يخمده العمل أو يفنيه النظام . والذى لابد مقترن بالمظاهرات

العاطفية وما يعقبها من فوضى العمل والانتاج ، إذن لما تردد لحظة فى اقصاء هذه المرأة عنه وخنق العاطفة فى صدره ، والالتجاء إما الى الدعارة واما الى التصوف كى يستعيد هدوءه ويستطرد العمل الأدبى فى طمأنينة وصفاء

كلا . . انه لم يحب حباً انسانيا صادقاً . لم يحس لا بالقلق ، ولا بالحيرة ولا بضرورة وجود حبه الى جانبه . ولا بألم الفراق ، ولا بعذاب الغيرة ، ولا بنعيم الشهوة وجحيمها

لقد كان يحتقر كل هذا ويمقته ، يحاربه فى نفسه وفى سواه ، ويجتهد فى ان يطهر خليلته منه . وبما انها كانت قد تورطت فى علاقتها به ، وكانت تود ان تمنحه السعادة اللازمة للعمل ، وتتوق لازدهار خصائصه الخالقة على يديها ، وبلوغه الشهرة والمجد تحت تأثيروحيها ، فقد أطاعته طاعة عمياء ، وكبحت جماح عواطفها كما يريد ، والتزمت الصمت مثله ، واعتادت العيش وفق هواه ، بلا حب انسانى صحيح ، ساكنه هادئة عاقلة ، آلة مسخرة لخدمة العبقرى !

وكانت سعيدة بذلك لاتشكو ولا تتململ ، لاتفكر فى حاجاتها الخاصة قدر ماتفكر فى حاجة الشاعر اليها ، تنصح الخادمة بتخفيض صوتها والتمهل فى سيرها تصرف الدخـــلاء والمستطلعين ، تمشى على اطراف قدميها ، تفتح الابواب وتغلقها فى رفق مخافة ان يفزع العبقرى فيكف عن العمل فيذهب جهد اليوم هباء ! . .

ولكى تشبع إحساسها الفنى ولا تحمل الكاتب عبء الانفاق عليها ، التحقت بالمسرح الغنائى وجعلت تمثل فى الاوبرات الكبيرة وظفرت بالشهرة والمال هى أيضاً . غير انها قدست نفسها فى النهاية لخدمة الشاعر . فكتبت البحوث عنه ، وطافت بمختلف العواصم تلقى المحاضرات عن أعماله ، ثم تخلت عن المسرح الغنائى وانصرفت الى تمثيل روايات ماترلنك — من مؤلفة ومترجمة — كـ (موناڤانا) و (مريم المجدلية) و (مكبث) وغيرها

وقد يتساءل القارىء ماسر اخلاص هذه المرأة للكاتب فيخيل اليه انه الحب العظيم يحفزها للمجد والتضحية ، نعم ولا . ان جورجيت كانت تحب موريس

ولا تحبه ، تحب الصورة الشعرية التى صاغها منه خيالها . تحب أسلوبه وفلسفته ، تحب جو الادب العالى وما فيه من نزعات شاذة ، وتصورات خارقة وتأملات سامية ، وألوان جمال طريفة تخلقها نزوات الغرائز والميول والأحلام

هذا ماكانت تحبه فيه . وهذا ماأخلصت له من أجله ، وما أنكرت ذاتها لاحيائه فى عمله ، ولكنها كانت امرأة ، وكانت فى حاجة إلى حب آخر ، حب تقترن فيه مطالب الروح بمطالب الجسد ، وكانت مستعدة لمبادلة ماترلنك هذا الحب لو أنه نزل بعض الشىء عن عبادته للأدب ، ونظر اليها نظرة هوى بشرى صحيح ، ولكنه أعرض عن احساسها النامى ، وأحبها كطيف من أطياف الجمال والفن ، واستخدمها كاداة وحى فقط ، فارتدت عواطفها إلى اطواء نفسها وظلت تتجمع هناك وتتربص ثم انطلقت فبددت خيالها ودمرت حلمها الجميل تدميراً !

وكان البيقرى فى هذه الأثناء يستغل حسنها وصباها وذكاءها . يستهبط الهاماته من وجودها الفنى الرائع ، يستبيح أفكارها وأدبها ، ترسل اليه الخطابات فيستملح منها بعض الخواطر العميقة فلا يتردد فى الاستيلاء عليها ، ومزجها بمادته ، واخراجها فى كتبه كأنها من بنات فكره الخاص .

ان (الحكمة والقدر) و (كنز المتضعين) و (أجلافين وسيليزيت) كل هذه المؤلفات فيها من آراء جورجيت وخواطرها ما انتفع به الكاتب وعرف كيف ينسبه لنفسه ويطبعه بطابعه ، ومع كل هذا فهو لم يستطع أن يحبها الحب الذى كانت تشتهيه ، لم يشفق عليها ، لم يرحمها ، لم يعترف لها بجميل

وما ان تقدم فى السن ولاحت فى جو كهولته فتاة فى السابعة عشرة — كانت قد مثلت دوراً صغيراً فى إحدى رواياته — حتى فتن بسحر شبابها ، وبدا له كأن فى وسعه تجديد عقله واحساسه على ضوئها ، فرحب بمقدمها ، وأنزلها من داره منزلة الصديق المنقذ ، وجمع بينها وبين الأخرى فى بيت واحد ثمانية أعوام ، ثم جعل يستمع لوشاياتها ، ويغض الطرف عن دسائسها ، حتى انتهى به الأمر الى الاذعان لها والتزوج منها والانفصال عن جورجيت لوبلان !

وبعد ان كانت جورجيت كل شيء فى حياته أصبحت لاشيء . بعد ان كانت المعبودة الملهمة أصبحت المرأة المنبوذة التافهة . المرأة التى هدم القضاء هيكل حبها وشردها وسلط عليها أشباح الفقر والخيبة والشيخوخة تطاردها وتسحم آخر ما بقى من أيامها !

وهكذا قدر على مخلوقة ضعيفة ملتهبة الخيال ، حادة المزاج ؛ ساذجة القلب والعقل ، أن تقع بين مخالب عبقرى اعتصر حياتها . وامتص كل ما فيها من شعور متوثب . وفكر وقاد . ثم مجتها نفسه فالقى بها فى عرض الطريق دون ما رحمة أو تبكيت ضمير !

ولكن من السبب فى هذا ؟ وهل الذنب فيما أصابها ذنب ماترلنك ؟ وهل لنا أن نتهمه بالشر المتأصل والجحود الفطرى والقسوة المتعمدة ؟ . . وهل لنا أن نحكم عليه؟

كلا . أنها العبقرية تعيش لنفسها فقط . لالصاحبها ولاللاخرين ! وما العبقرى إلا نصف إله لايستطيع ان يخلق الا اذا سلب ! يأخذ من الطبيعة كل ماتصل اليه يداه ليرده اليها أصفى جمالا وأمتع لذة وأوفر غنى !

وبما أنه يعمل للخير العام ، ويحترق ، ويضحى بذاته فى سبيل الانسانية فهو يستحل تضحية غيره فى سبيل الانسانيه أيضاً . لذلك هويهزأ بأقدس الروابط وأنبل الاحساسات متى شعر أنه قد استنفد عصارتها وفاز بنصيبه منها وأنها قد تصبح ذات يوم عقبة كؤودا فى طريق ذهنه الطامح إلى مواصلة التجدد ومواصلة الانتاج !

فهو يحب الانسانية ، ولكن كفكرة ، كمجموع ، وكثيراً ماينفر منها ويكرهها اذا ما تمثلت فى فرد مهما كان محبا ومهما كان محبوبا . اذ الفرد يقيد العبقرى ، ويحد محيطه الفكرى ، ويغله بالفروض الاجتماعية ، ويشوه بنقصه مثله الاعلى ، ويستأثر بذهنه ويصرفه عن العمل

فالفرد اذن أنانى . والعبقرى يعرف ذلك فيقابله أنانية بأنانية ! . .

ولكن أنانية العبقرى — بالنسبة الى الغرض العظيم الذى تسعى اليه — قاسية فظيعة وحشية . فهى التى أشعلت المأساة بين ماترلنك وعشيقته ، وهى التى قبضت على المرأة المسكينة بأيد من فولاذ وأخضعتها ثم شرعت فى تعذيبها واستغلالها مدى عشرين سنة كاملة !

نظرات فى العالم الحاضر

Regards sur le monde actuel

تأليف بول فاليرى عضو الاكاديمية الفرنسية

بول فاليرى شاعر قبل كل شىء لايستلهم الطبيعة بغريزته فحسب . بل بعقله المتوقد أيضاً

فالعواطف البشرية تبدو له مضطربة مشوشة سابحة فى جو من الظلمات . فيقبل عليها مستعينا بفنه يبدد به ظلامها ويقر فى جوانبها النظام . والفن فى عرفه مجهود عقلى يشرف على الاحساس ويسوده ، ويكبح الأعصاب ويهديها ، ويوزع الاضواء والظلال ويضبط النسبة بين الخيال والواقع ، ويحفظ التوازن بين ظلمة الغريزة ونور العقل

وليس معنى هذا أن تزاحم العواطف واختلاطها وتضاربها وفوضاها لامحل لها فى شعره بل هى قائمة تعصف بالقصيد كما تعصف بالحياة . ولكن من خلال حدود مرسومة ، وخطوط دقيقة ، وأوضاع متناسبة متسقة تشعرك بان هذه الطبيعة الجامحة قد تراخت وخضعت للفنان الذى أحس قواها الغامضة بفطرته النيرة واستطاع ان يروضها بعقله الجبار

ومن هنا كان بول فاليرى شاعراً وفيلسوفا ورياضيا يسمو بشعره فى بعض الأحايين الى اوج يخيل اليك وأنت محلق فيه انك تستمع الى شاعر جمع فى نفسه اضطراب القرن العشرين وصفاء الروح الاغريقية واتزانها !

* * *

وشاء هذا الرجل أن يهبط من سمائه الى أرضنا وان يهتم بمشكلات العصر الحديث ، بالتاريخ والاجتماع والسياسة ومصير أوربا وحضارتها ، فوضع كتابه الاخير المسمى « نظرات فى العالم الحاضر »

obeikandl.com

ولم يشأ أن يكتب فى هذه الموضوعات بحثا مستفيضا يلم فيه بالدقائق والتفاصيل ويعرضها فى أسلوب مضجر ثقيل كاساليب معظم العلماء والباحثين ، بل آثر الخطرات الصغيرة التى تسجل الفكرة العارضة والاحساس الطارىء ، وما أحـــدثاه من هزة عميقة بعيدة التأثير . وكأنى بالشاعر لم يستطع ، حتى فى حديثه عن مشاكل المجتمع ، ألا أن يكون شاعراً . فجاءت خواطره أشبه بمقطوعات شعرية فيها من اللمعة والموسيقى ودقة الفكر مايفتن الفنان والعالم معاً

ولقد كدت ألخص هذه الخواطر فى دراسة عادية ، ولكنى راجعت نفسى ورأيت ان الدراسة تستلزم شيئاً من المنطق والتسلســـل والحبك والانسجام ، فخشيت أن أخون الرجل وأزيف على القراء طابعه ففضلت أن اتبع طريقته وانقل صفوة خواطره فى أسلوب الخواطر نفسه

نحو سياسة أوربية جديدة

يكاد لم يبق فى العالم ركن لم يكتشفه رحالة ولم تقع عليه عين الانسان المحتضر لقد استطاع هذا الانسان أن يقيس أجزاء الدنيا ، ويهتدى الى قوانين حركتها ، وينبش كنوزها ويستغلها أتم وأوفى استغلال . .

فهو بذلك قد ضاعف علمه ونشر قوته وسلطانه . وأحس بعظمته تنمو وتزدهر يوماً بعد يوم

ولقد كان العالم منقسما فيما مضى الى كتل يناوىء بعضها بعضا . وكانت السياسة قائمة على الامعان فى فضل هذه الكتل . وتأليب بعضها على البعض الآخر . أما اليوم فقد ترابطت المصالح والاقطار ، وأصبحت السياسة القديمة مضطرة بحكم هذا الانقلاب الى تبديل أساليبها ، والنظر الى العلاقات الدولية كاشياء معقدة متشابكة ، والى العالم كوحدة كبيرة . بل كجسم حى لايلبث أن يصيب الداء عضواً منه حتى يحس بالألم الجسم كله

والفضل فى هذا الانقلاب يرجع الى العلم والصناعة بوجه عام والى أوربا بوجه خاص . فقد أسست أوربا عظمتها على اكتشاف القوانين والطرائق التى سمحت للانسان بمعرفه أسرار الأرض وامتلاكها

ولكن الظاهرة الجديدة التى لاحت فى الافق الآن هى أن العلم الحديث الذى مابرحت أوربا تسهر عليه وتنظمه وتضيف اليه كل مستحدث طريف تتمخض عنه عبقريات أبنائها ، هو بطبيعته كالسائل المتمدد ، بل هو قوة تحمل فى تضاعيفها خصائص الذيوع والانتشار ، قوة لاتخاطب الاحساسات المتمايزة ، والأمزجة المتباينة ، والوراثات العاطفية والدينية المختلفة — كما يفعل الفن الذى قد يعسر تقديره وفهمه على بعض الشعوب المتأخرة — بل العلم قوة تخاطب العقل وحده ، وقوانين العقل منطقية تطبيقية رياضية محضة من السهل ان يتفق عليها الكل ويعتنقها الجميع نظراً لفوائدها العملية السريعة الظاهرة

فاوربا قد أوجدت العلم الحديث ، ولكن هذا العلم قد شاع واستولت عليه قارات أخرى تمتاز بوفرة عدد سكانها ، وغليان دم الشباب فيها ، ونزعتها المباغتة الى التحرر والنهوض ، واستعدادها لاستخدام أسرار العلم فى سبيل الانتقاض على أوربا وهدم عظمتها وسلطانها

وأبلغ مثال على ذلك مانشاهده اليوم من سيطرة أمريكا الاقتصادية على أوربا ويقظة الشعوب الاسيوية كاليابان أو الروسيا على دوى المعامل والآلات ، ونفاح البعض منها كالهند والصين مثلا لتثبيت دعائم استقلالها الاقتصادى والفوز باستقلالها السياسى ، ووثبة معظم أمم الشرق الأدنى وأخذها باسباب الحضارة الاوربية وسعيها المطرد الى التغلب على مستعمريها ، والظفر بحقها فى الحياة والحرية

فواجب أوربا والحالة هذه — اذا ما رغبت فى البقاء — أن تجتهد فى احداث انقلاب فى خططها السياسية يتلاءم والانقلاب الذى أحدثه العلم فى العلاقات بين مختلف الأمم

عبث التاريخ

مما لا يقبل الريب أن العقول المنصرفة إلى التفكير فى الغد إنما ترى الحاضر على ضوء الماضى وتهتدى بحوادث التاريخ لمعالجة شؤون المستقبل

وهذا هو الخطر

إذ ليس هناك أى فارق بين التاريخ يكتبه مؤرخ كتاسيت أو ميشيليه أو فنان كشكسبير أو بلزاك

التاريخ نقل وسرد وفن . وبقدر ما يكون المؤرخ رشيق العبارة ، فاتن الاسلوب ، بقدر ما يؤثر فينا ، ويقنعنا بحقيقة الوقائع التى يرسمها

على أن فى حوادث التاريخ معجزات يقف عندها المؤرخ حائراً لا يعرف لها سببا ولا تعليلا وهذا ما يرغم القارىء على الاشتراك فى التاريخ بنفسه وتفسيره وفق هواه . وتقرير ماهو حقيقى منه وما هو خيالى . . .

والمدهش أن يكون التاريخ فنا متعلقاً بفكر المؤرخ وعاطفته ومزاجه وأسلوبه ، وبشخصية القارىء واحساسه وميوله ، ثم نتخذ منه أداة للحكم على الحاضر ، ونسترشد بسير حوادثه وتطوراتها وتفاعلاتها لتنظيم المستقبل

والواقع أنه لم تعد ثمة علاقة وثيقة بين الماضى والحاضر

وهب أن فلسفة التاريخ القديمة كانت صحيحة فهى قائمة على نظرية أن العالم كتل متفرقة مختلفة المصالح لا تنفك تتنابذ تتناحر فى حين أنه اليوم وحدة اقتصادية إن لم تطبق عليها فلسفة غير تلك اصابها الانحلال والموت لا محاله والمشاهد فى أوربا أن عواطف ساستها واطماعهم انما تنشأ من مطالعات التاريخ ، وذكريات وقائعه ، والرغبة فى تطبيق قوانينها العتيقة على دنيا جديدة لا تمت اليها بأية صلة

والسياسى الاوربى اذا ما عرض له حادث خطير لا يفكر فى أن هذا الحادث فريد فى نوعه وانه يرتبط بعدة حوادث لم يعرف التاريخ لها شبيها . وانها تتطلب حلا مبتكراً جديداً . لا يفكر فى هذا ، بل يرجع بذاكرته الى ماوعته من محفوظات التاريخ يستهديها الفكرة والعمل ، هاربا من الابتكار والخلق ، متجنبا مقابلة الحادث الجديد بحل جديد من نوعه يبتدعه ابتداعا ويوفق بينه وبين مطالب الساعة

وهكذا يقتل التاريخ ذهن السياسى ويستعبده . وهكذا تردد الانسانية اليوم ما فعلته بالامس بل هكذا يتقدم العالم ويتجدد ويظل مع ذلك محكوما بروح التاريخ الغابر وفلسفته البالية . . .

ويسوق بول فاليرى عدة أمثلة للدلالة على صحة نظريته فيقول :

ولو أن شارل الاول لم يعدم لكان فى الامكان أن يعفى عن لويس السادس عشر . ولو أن بونابرت لم يفكر طويلا فى تحويل نظام الحكم الرومانى من جمهورية الى امبراطورية تستند الى السلطة العسكرية ، لما فكر فى تنصيب نفسه أمبراطوراً

لو أن روح التاريخ القديم وأساليبه لم تكن مستولية على بسمارك فى مؤتمر برلين لما اقتصر على التفكير فى مصلحة بلاده ضمن حدود أوربا فقط . ولما دفع بالدول الاوربية الى الاهتمام بالمستعمرات والتنازع عليها ليبقيها متنافرة متخاصمة دون أن يفطن الى أن المانيا سوف تطمح ذات يوم الى الحصول على نفس تلك المستعمرات التى زينت للاخرين امتلاكها فتجتمع الدول كلها عليها كما وقع فى الحرب الكبرى

فبسمارك قد فكر فى المستقبل ، ولكنه لم يفكر فى امكان وجود مستقبل جديد آخر غير ذلك الذى استوحاه خياله من روح التاريخ وحوادثه

ومما لاشك فيه أن التاريخ أشد فتكا بالأمم من الأوبئة . فالقادة يفسرونه وفق أهوائهم والشعوب تحلم فى ظلمته بالعظائم غير المتناهية ، وتنتشى بالمفاخر الحربية الرائعة ، وتذكر الخصومات الوراثية الفاجعة ، وتنمى فى نفوس الابناء والاحفاد غرائز البطش والاضطهاد كما هى الحال فى ايطاليا اليوم .

الفكر الأوربى

فى الفكر الاوربى تناقض عجيب . فبينما هو علم لا يشوبه الغرض ، وضمير حر صارم نزيه وعقل باحث ناقد مدقق ، اذا به يستحيل فى اذهان الساسة الى اصنام فارغة وغرائز هائلة وسلسلة مطامع وفواجع لا نهاية لها

ساسة أوربا وخيانتهم

مما يلاحظ فى تاريخ أوربا انه لم تستطع دولة من دولها أن تنشر سيادتها وتحتفظ بممتلكاتها أكثر من خمسين سنة

لقد فشل ساستها العظام جميعا . بل ان أذكاهم وأمهرهم وأسعدهم قد جلب

على أمته الخراب والدمار

وهذا شارل الخامس ، ولويس الرابع عشر ، ونابليون ، ومترنيخ ، وبسمارك ، لم تعمر جهود معظمهم أكثر من أربعين أو خمسين سنة

بينما كانت العقول الاوربية الممتازة تسعى جهد استطاعتها لتكوين رأس مال اوربا الثقافى . كان لاينفك ساستها يعملون على خيانتها بمنح الشعوب التى فكروا فى اخضاعها مختلف الادوات والطرائق التى تقوم عليها عظمة اوربا ....

فكفاح اولئك الساسة من اجل نشر حضارتهم وارسالهم الاخصائيين ومعهم الآلات الى بلاد غريبة وفتحهم المدارس هناك وتنظيمهم الجيوش والاساطيل كل ذلك لم يكن ليتفق والسيادة الفعلية على العالم التى كان ينزع اليها مثقفو اوربا ....

وعليه فقد أصبحنا اليوم واذا بالقوى الاوربية قد تسربت الى امم وقارات أوفر من أوربا عدداً ودونها ثقافة

وان من يفكر فى ان مساحة القارة الاسيوية هى اربعة اضعاف مساحة اوربا وان امريكا لاتقل عن آسيا اتساعا وان سكان الصين لايقل عددهم عن سكان اوربا وان تعداد اليابانيين يربى على الالمان وان اولئك جميعا يتوجهون بقلوبهم وعقولهم نحو الاخذ بأسباب الحضارة الاوربية لابد يشعر بالخطر الهائل على مصير اوربا

فيوم ان تكتشف فى آسيا المناجم وتغص مدنها بالآلات والمصانع يوم ان تخرج تلك القارة من الفولاذ والحرير والاقمشة والورق والمنتجات الكيميائية كميات وفيرة تبيعها بأبخس الأثمان نظرا لملايين الايدى العاملة فيها واعتدال مطالبها وانتشار الوسائل الصحية الحديثة بينها ، فى ذلك اليوم قد يشعر ساسة أوربا أن سيادتهم القديمة ، لا أثر لها ، وان الغلبة للعدد وتفوقه وانهم قد باعوا حضارتهم من حيث ارادوا لها الفوز والحياة ...

الشرق والغرب

ان الفارق بين الاوربى الحديث والشرقى القديم ان الاول يحيا فى الساعة التى هو كائن فيها والثانى يعيش فى الابد

الاول يضيق فسحات العالم ليفهمه أو ليعتقد أن فى وسعه أن يفهمه ، والثانى يتناول الطبيعة كلها فى تأمل شامل قوامه الدين والشعر والفلسفة

الاول ينشد السرعة والدقة والغرابة والطرافة ، والثانى يرى هذه الأشياء محيرة مقلقة باطلة

الاول يخلق فيهدم ثم يعود فيخلق فيهدم ، لايعرف الاستقرار على فكرة أو عقيدة ، وكأنما اللعب بالأفكار والنظم واستبدال الواحد منها بآخر ، هو فى عرفه قانون التطور . أما الثانى فمحافظ شديد التمسك بماضيه ، يقف بالغرب متفرجا باسما ساخراً يتأمل هذه التطورات المتداركة كما يتأمل شاعر صوفى فقاقيع الماء . . .

الاول يعمل لهذا العالم ، والثانى ينشد الخلود فى عوالم أخرى

الاول يعبد القوة ويقدس المادة ، والثانى يمجد الأمثلة الروحية العليا

ولقد ابتدع الصينيون البوصلة والبارود والطباعة ولكن أوربا هى التى استولت على هذه الكنوز وعرفت كيف تستخدمها وتغير بها وجه العالم

وهذا يدل ابلغ الدلالة على تخاذل الفرد الشرقى القديم واهماله الأخذ بأسباب الحياة الواقعة والمضى فى اصلاحها وتبديلها ، ترفعاً منه وضنا بروحانيته عن النزول الى مستوى الحقائق العملية اليومية وفروضها

تلك كانت نزعة الشرق فيما مضى ، أما اليوم فقد تبدل الأمر ونبتت فى رأس كل شرقى مثقف ناشىء فكرة الجهاد العملى والثبات فى وجه أوربا والاقتداء بها ما استطاع الى ذلك سبيلا

وهكذا اختلط الشرق بالغرب وتوحدت روح الحضارة فى العالم الى أن تحين الساعة التى يكمل فيها نضوج الشرق فينهض ويكافح ويتغلب وعندئذ قد يبقى على الحضارة الصناعية كما هى فى شكلها الحالى أو قد يطبعها بطابع جديد ليس فى مقدورنا الآن تحديد خصائصه والتنبؤ به

* * *

تعليق

هذه أهم الآراء التى يقوم عليها كتاب الشاعر والمفكر بول فاليرى . فما الذى

نستطيع أن نفهمه نحن الشرقيين منها ؟ وأى درس تلقيه علينا ؟ وما الذى يرمى اليه كاتبها واية المخاطر البعيدة يحاول أن يوجه اليها نظر أبناء جلدته ؟

فهل هو باحث نزيه حر يسجل الاغراض الاجتماعية والسياسية فحسب . أم هو من محبى السلام . أم هو من تلك الطائفة المعروفة التى ترسل اللفظ المعسول والكلم المنمق تستر وراءه — فى مهارة وخبث وذكاء — شر مايخامر النفسية الاوربية من نزعات السيادة والاستعمار ؟ . .

الواقع أن الرجل لم يكاشفنا برأيه صراحة ، ولم يرسم الطريق الواضحة التى يطلب الى أوربا أن تسلكها

لقد هدم سياستها العتيقة ، وهدم التاريخ الذى تستمد هذه السياسة من منطق حوادثه أصولها . ولكنه لم يرشد الى شىء . ولم يبشر بالخطه المثلى ، ولم يضع للغرب أى برنامج سياسى جديد

فهل معنى هذا أن ليس للرجل هدف يسدد نحوه سهام أغراضه ، وليس له منزع خاص نستدل عليـــه من مجموع أفكاره ويتراءى لنا من خلال خواطره اللامعة الصقيلة التى يضفى عليها حلة شعرية رائعة ؟ . .

يلوح لى ان بول فاليرى بالرغم من دعوته الى تجديد السياسة الاوربية وتعديل اتجاهاتها بما يتفق وروح العصر . لايزال فى أعماق نفسه أوربيا صميما . أى ان مصير الانسانية لايهمه وانما مصير أوربا وحدها هو الذى يشيع فى نفسه الغضب والقلق والتمرد

هو أوربى يدافع عن أوربا ويلفت نظر أبنائها ، الى مايتهدد مستقبلها ، ويحاول أن يصلح من سياستها التقليدية لمصلحتها هى لا لمصلحة الانسانية

ولكن من الذى أثار فى نفسه هـــذا الاحساس . وضد من ينادى الرجل بالاصلاح ؟ أجيب فى غير شك أو تردد : ضد الشرق والشرقيين

أنه يخشى على أوربا غزوة الشرق المسلح بنفس سلاحها

أنه ينظر الى آسيا كعدو لدود ينمو ويتضخم ويتحضر ويتحفز شيئاً فشيئاً

وليست هى آسيا وحدها التى يخافها بل هو يخاف مختلف أمم الشرق العربى التى تنزع نزعتها

وعليه فهو يهيب بشعوب أوربا أن استيقظوا ، وانعموا النظر فيما يحيط بكم ، واشرفوا على المستقبل البعيد ، وانبذوا المنازعات القديمة ظهريا ، وكونوا جبهة متحدة ضد الشرق ونهضته . .

وفى الواقع بماذا نفسر جميع تلك المحاولات التى يقوم بها بعض ساسة أوربا الآن لتهيئة الاذهان لقبول فكرة اتحاد الدول الأوربية الا بانها جهود ترمى الى مقاومة نفوذ امريكا من ناحية وتحطيم أجنحة الشرق من ناحية أخرى ؟

ان كل اتحاد تحققه أوربا انما يدفع الشرق ثمنه وهذا مايجب أن نفهمه . . .

وأنا مع عظم حبى لبول فاليرى كشاعر وفنان ، ومع تقديرى لكتابه الاخير ، لاأستطيع أن أتمالك احساسى بالنفور حين اسمعه يقول أن ساسة أوربا قد باعوا حضارتهم للشرقيين وانهم لم يؤدوا الرساله الاوربية حقها من الوفاء ، كأنما الحضارة يجب أن تكون وقفا على جنس دون جنس وقارة دون قارة وفكر دون فكر ! ...

أليس هذا هو الاستعمار بعينه ؟ . . .

فاين هذا من كلام أمثال رومان رولان وولز واينشتين وتاغور . أولئك الذين ينادون بادماج العالم فى حضارة واحدة والعمل على ابتكار أنظمة حكومية انسانية تكفل الراحة والرقى والسلام للجميع ؟ . . .

أن حياة أوربا ومستقبلها ليس فى أن تتحد فحسب . بل فى أن تتحد لتستخدم علومها وحضارتها وثقافتها لايجاد تلك الأنظمة أو ذلك النظام الانسانى الجديد الخليق بحضارة انسانية واحدة

أما الاثرة الاجتماعية والتعصب العنصرى والتحالف لمجرد المصلحة وضد الآخرين ، فلن يكون من شأنه الا أن يضاعف فى الكتلة الاخرى احساسها بالحياة ، ويحفزها للتحالف والتازر هى أيضا . وعندها قد تنعكس الآية . وقد يكون الفوز من نصيب الشرق الناهض العامل الطموح كما يتنبأ بذلك بول فاليرى نفسه !

مرض الكلام

Le langage et la Verbomanie

تأليف العلامة أوسيب لوريه

جعلت أنقل بصرى بين مختلف الكتب المتراصة على رفوف مكتبتى يحنو بعضها على بعض كأن كلا منها يسر الى الآخر شكايات طويلة ما لها من نهاية . . .

ولفت نظرى هذا الكتاب . وكان متأ ذل الظهر، ضئيل الحجم مغبر الاسم . مندسا بين رفاقه يحاول أن يشق له فى جوف المكتبة مسكناً خفياً يتوارى فيه . ولكنى أسرعت فانتزعته ونفضت عنه الغبار المتراكم وفتحته ثم قلبت منه بضع صفحات فأخذت وانحيت على نفسى باللائمة كيف أهملت مطالعته حتى اليوم . ثم استقر رأيى على تلخيصه

وكان سر إعجابى بهذا الكتاب أن موضوعه شائق طريف وأن العلة التى يتناولها مؤلفه بالدرس والتحليل انما هى علة الفكر الشرق فى مظاهره التى نشهدها اليوم

أما مؤلفه — أوسيب لوريه — فقد كان أستاذا بجامعة بروكسل . وهو من أولئك المفكرين الذين يبتدعون النظريات ويجددون فى دراسة الادب وفى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى ومن أشهر أعماله كتابه عن القصصى الروسى ليون تولستوى وعن المؤلف المسرحى هنريك ابسن وعن التطورات الاخيرة لنظام الحكم الجديد فى الروسيا

والكتاب الذى نحن بصدده يدور حول فكرة رئيسية على جانب عظيم من الخطورة ، وهى أن الكلام اذا كان ظاهرة طبيعية سليمة متى قصد به التعبير عن

الفكر ، فهو ظاهرة مرضية متى أرسل جزافا ولم يقصد به المتكلم التعبير عن أفكار دقيقة ذات معنى معين

فقد يتحدث اليك بعض الناس وقد يسرف فى الحديث ويسترسل فى الثرثرة فاذا ما حاولت الوقوف بالضبط على ما يقصد اختلطت عليك المعانى وضاعت فى غمرة الالفاظ وتبين لك أن الحديث كان لغواً باطلا وان محدثك لم يقل فى الواقع شيئا

هذه الظاهرة نلمحها فى كثيرين ولكنها متى تمكنت من صاحبها . وأفلتت من رقابته استحالت الى مرض يهدد الفكر والمجتمع معاً

وبقدر ما يكون المصاب بها من الأشخاص الممتازين بقدر ما يلحق الضرر بالفكر والمجتمع

وفى وسعنا أن نتصور العلماء والأدباء والاساتذة والمحامين والخطباء المولعين باللفظ وسحره ، والجمل ورنينها ، ودوى الكلام المنمق يخلب السامع أو القارىء ويباعد بينه وبين الحقيقة ويطغى على جوهر الفكرة المنشود

والملاحظ فى المريض بهذا الداء أن الافراط فى الكلام يسكره . وأنه يلتذ بابتكار وقائع غريبة وخلق تلفيقات مدهشة . وكلما كان حظه من العقل والتثقيف وافرا استخدم عقله وثقافته ليقنع الناس أن حديثه الاجوف يحمل أروع المعانى وأخصب الافكار ، واستطاع أن يؤثر فيهم وينشر عدواه بينهم

فاذا كان من الكتاب ساقته نشوة الثرثرة والمط والتكرار والكلف بالمحسنات اللفظية الى اختراع أفكار واحساسات وعواطف لا رابطة بينها ولا حقيقة حية تستند اليها ولا غاية محددة ترمى الى استيضاحها

واذا كان من المحامين حاول ان يظفر من القضاة بالتهويش مالا يستطيع أن يظفر به بالمنطق المحكم والاستنتاج الدقيق والدفاع الواضح البليغ

واذا كان من العلماء أفقده هذا المرض فضيلة النظر الى الاشياء نظرة مجردة وتحديد علاقاتها الصحيحة واصدار الاحكام النزيهة عليها

واذا كان من الخطباء حمل الشعب على أجنحة الالفاظ الداوية وغرر به

ودفعه للقيام بأعمال قد يكون هو أول النادمين عليها ساعة أن يخلو الى نفسه ويحاسبها على ما جنت شفتاه

ويقول أوسيب لوريه أن من أعراض هذا الداء اعتداد المريض بنفسه وزهوه وتفاخره واستباحته حرمات الافكار المجربة والفضائل المقدسة واستعداده العجيب للكذب

غير انه لا يكذب عن عمد كذبا عقليا منظما يرمى الى غرض معين ، بل يكذب اعتباطا وبلا مبالاة

يكذب لأنه لابد أن يتكلم . ومتى تكلم فهو لا يلاحظ العلاقة بين حديثه وفكره وبين أقواله وأعماله

وهو لا يحفل بهذه الملاحظة لان البحث عن الحقائق لا يهمه . فاذا ما عرض له شأن من الشؤون نظر اليه من خلال سحب الالفاظ المتراكمة وحاول بواسطة الكلام الجميل المنمق أن يخلع عليه مظهر الحقيقة ، وان يصب فيه من روح الاساليب الخطابية ما قد يظنه الناس حرارة وجدانية صادقة ، وحماسة فكرية نبيلة ، وحياة مصطخبة متدفقة

وهذا ما يفسر لنا تلك الحالات النفسانية الغريبة الشائعة بين بعض الزعماء السياسيين وقادة الجماهير أولئك الذين يعملون ويبشرون وينادون بالمبادىء العظيمة والامثلة العليا ويحفظون ، بينا حياتهم اليومية وتصرفاتهم الشخصية تعارض الغاية التى ترمى اليها تعاليمهم معارضة صارخة لا يشعرون بها لفرط خضوعهم لسلطان الكلام وامتثالهم لسحره وتوهمهم أن الكلام هو العمل وان النظريات هى الحقائق

ومما لا يقبل الريب أن مرض الافراط فى الكلام وعدم تحرى الدقة والاتزان فى التعبير عن الفكر يفقد الكلمات معانيها الصحيحة ويشجع الكثيرين على الاستخفاف بالقيم العظيمة أو هدمها فى غير احتفال . فتتساوى فى نظرهم أقدار الناس أو تعكس فيصبح النابغة عبقريا والعبقرى نابغاً والشرير طيباً والطيب شريراً . وهكذا يمتلىء جو الحياة بالآراء الزائفة ويتفشى الكذب ويتكون رأى عام سطحى يعنى بالعرض دون الجوهر ويستريح الى الحقائق التقريبية المضللة المبهمة . . .

ومن أعراض هذا الداء أيضاً شدة ميل صاحبه الى النميمة . فالثرثار عندما لايجد مادة بريئة لثرثرته يلفق الأحاديث عن الغير وينسب اليهم من التهم ماهم منها براء فاذا ماالحقهم أى أذى بسببه فقد يتألم ولكنه مع ذلك يمضى فى رذيلته دون ان يحسب للعواقب أى حساب

وكما أننا نلمح آثار هذا المرض بين الرجال كذلك نراه بين النساء . بل قد تكون النساء أكثر استعداداً لقبوله اذ المرأة بطبيعتها ثرثارة لاسيما اذا كانت دميمة . أما المرأة الصبية فنادرة الوجود

ويزعم أوسيب لوريه أنه قد طاف ببعض البيمارستانات ولاحظ ان المرأة المجنونة أسرع فى الافضاء بدخائل نفسها من الرجل المجنون . وأنها ماتنفك تتحين الفرص لتستميل اليها بعض زفيقاتها وتأخذ فى أن تقص عليهن مختلف الاقاصيص

ويضيف المؤلف الى هذا ان تاريخ الاجرام حافل بالأدوار الخطيرة التى لعبتها المرأة

فالرجل هو الذى يقترف الجريمة ولكن المرأة هى التى توحى بها . هى التى تشعل فى الرجل جذوة الاقدام . وتصب فى عروقه دم القوة . وتزين له ارتكاب الشر بحديثها المتواصل واصراراتها المتدارکة وألفاظهـــا المختارة المصولة المنهمرة كالسيل

ونحن اذا ماعدنا الى شكسبير وراجعنا قصة « مكبث » أدركنا كيف ان الغريزة النسوية تقوم على شهوة الجنس وشهوة المظهر وشهوة الكلام وكيف ان « اللادى مكبث » توسلت الى أغراضها بالكلام وظلت تتكلم وتفتن فى كلامها حتى دفعت بزوجها الرعديد الى اقتراف الجريمة . .

وقد تختلف المرأة عن الرجل فى ان أفراطها فى الثرثرة كثيرا ماتصحبه فكرة تهيأ فى الذهن قبل ان ينطلق اللسان بمدحها ، وابراز خفى محاسنها ، والاعراب عن الفوائد الجمة التى تنشأ عن تحقيقها

ومع ذلك فالمرأة لفرط ولعها بالكلام لاتحب أن تتعجل تحقيق تلك الفكرة وتظل تعتقد أن الزمن كفيل باخراجها يوما من ظلمة الخيال الى نور الواقع . ولكن المرأة اذا مايئست فى النهاية من امكان تحقيق فكرتها فالكلام يعزيها عنها والاسراف فى الكلام يلقى فى روعها ان الفكرة قريبة التحقيق بل أنها قد حققت بالفعل

وهذه هى الحالة المرضية التى قد تنمو فى نفس المرأة نمواً خطيرا اذا لم يكن لها من عقلها المثقف ، واحساسها المهذب ، وضميرها الحى ، ما تستطيع ان تضبط به التوازن بين العقل والاعصاب وبين الفكرة والحقيقة

* * *

ويعود بنا المؤلف الى تلك الطبقة من القادة ورجال الفكر الذين هم بحكم وظيفتهم أكثر استهدافا لهذا المرض من سواهم وأقدر على نشره من غيرهم . فيتخير منهم الخطيب الزائف والكاتب الزائف ويرسم لكل منهما صورة حية واضحة الاضواء والقسمات

فالخطيب الزائف يبنى فنه الخطابى على الفصاحة مصحوبة بقوة الحركة والاشارة . وليس المهم فى نظره ان يجتذب اليه مستمعيه بتقسيم موضوعه وتحديد نقطه والتعمق فى شرحه وتحليله والاستعانة بالعواطف والعبارات الحماسية لاثبات وتوكيد النتائج الواضحة التى انتهى اليها بحثه . بل المهم عنده ان ينتقى الالفاظاً الرنانة ويشفعها بالتلويحات العريضة والصوت الجهورى . ليحدث فى الجماهير تأثير عاصفاً مربكا مباشراً يفقدها الاحساس بالحقائق واستطاعة ادراكها والرغبة فى الوصول اليها

هذا الخطيب الزائف هو الذى لاتكاد تقرأ خطابه صبيحة يوم القائه حتى تبهت له وتعجب لكمية السخف المودعة فيه وتدرك ان التغرير بالشعب من أيسر الأمور وان هذا الخطيب ليس فى الحقيقة غير مسخ ومهرج كان أجدر به ان يصول ويجول فى ملعب لأن يعتلى منبرا ويخطب فى مسائل تمس حياة شعب

أما الكاتب الزائف فهو الذى يؤثر اللفظ على المعنى ويضحى بالمعنى فى سبيل اللفظ

هو الذى يختار أفخم الكلمات وأدهش التعابير وأندر المجازات ويعتبرها غاية لا وسيلة

هو الذى يسرف فى الالفاظ وينفقها جزافا ويراكم الجمل بعضها فوق البعض الآخر ولا يتورع عن استخدام المترادفات ويكرر ما قال ويتكلم كثيراً ليعبر عن القليل

هو الذى تضيع فكرته فى اعصار لفظه وتتضاءل معانيه فى ضجيج ثرثرته

هو الذى لا دقة فى أسلوبه ولا تمايز فى ألوانه ولا بروز ولا اتساق

هو الكاتب الذى لا يقدس الكلمات ولا يعتقد بأن لكل منها كيانا خاصاً يؤدى صورة خاصة أو عاطفة خاصة ، ولا يؤمن بأن هذا الكيان يجب أن يحترم ويصان من التبذل فى تحدث الكلمه فى نفس القارىء تأثيرها الحى العميق

وأمثال هذا الكاتب كثير بين الصحفيين فقد تكون الفكرة بسيطة تافهة فيطلب الى الصحفى أن يملأ بها ثلاثة أعمدة أو أربعة فيضطر عندئذ الى المط والتكرار والتهويش . وفى هذا مافيه من الخطر على الفكر قد تستطيع الصحافة تلافيه بالاستعانة بعدد وافر من الأدباء يكتبون المقالات القصيرة بأجر متوسط كما هى الحال فى الصحافة الفرنسية الحديثة مثلا

ولكننا اذا التمسنا بعض العذر للصحفى المسكين فلا يسعنا الا ان نحكم الحكم الصارم على الاديب الذى يعالج خلق الأعمال الادبية الفنية وقد تمكن من عقله مرض الكلام

ومما لاريب فيه ان الكاتب الزائف الذى يبتكر عملا أدبياً تسوده الرغبة فى العنايه باللفظ لايخلق غير عالم فكرى أو نفسانى زائف يسهل فيه التلاعب بالمبادىء والآراء والعواطف والميول وتنعدم فيه الامانة والصدق فى التعبير والتصوير

ولكن القارىء العادى كثيراً ماتخيل اليه ان هذا العمل قوى وأن الأسلوب يتدفق تدفقاً ينم عن قريحة وقادة وملكات خصبة خالقة ، بينا هذه القوة ليست فى الحقيقة غير حمى الالفاظ تساور الكاتب ساعة يكتب وتحمله على امواجها المتلاطمة وتتقاذفه وتكتسحه

* * *

ويقول اوسيب لوريه ان قيمة الكلمات ومعناها أشياء لاتحفل بها الجماهير المتأخرة كثيراً . إذ منطق تلك الجماهير هو منطق الاحساس لا منطق العقل . والاحساس ميال بطبيعته الى الألفاظ الداوية التى تهتاجه وتلهبه

ومن خصائص الجماهير المتأخرة انها ميالة الى الجمل القصيرة التى تحبس الاحساس العنيف فى حيز ضيق وتؤدى الفكرة الطائشة البسيطة كاملة كتلك الجملة الرائعة

التى أجراها شكسبير فى قصة « يوليوس قيصر » على لسان الشعب عندما أقبل بروتس عقب مقتل قيصر فقد هتفت الجماهير تحية له وتقديراً قائلة :

« ليعش بروتس . فلننادِ به قيصراً ! »

وهكذا تتسرع الجماهير المتأخرة فى المكافأة والتقدير وحل المشاكل الكبرى دون تبصر وحسبما تمليه عليها احكام العاطفة ونزوات الساعة

لهذا يجب تثقيف الشعب وصقل ملكاته الناقدة وتعويده المنطق الصحيح كى يسهل عليه ادراك العلاقة بين الكلمات ومعانيها المباشرة وغير المباشرة فلا تؤثر فيه جعجعة الكلاميين ولا يستسلم لنشوة مرض الكلام

* * *

هذه مجمل الخواطر التى احتواها كتاب العلامة أوسيب لوريه ، وهى كما ترى تنطبق علينا كل الانطباق وكأنها قد كتبت من اجلنا

فنحن نتكلم كثيراً ونعمل قليلا

نعلل انفسنا بالكلام بينما الحياة تطالبنا بالعمل . نغرق فى الشحناء والجدل اللفظى فيخيل الينا اننا نعمل

ولفرط ما اسرفنا فى الكلام كادت تبتذل أقدس كلماتنا « كالحرية » و « الحق » و « الوطنيه »

ولفرط ما استرحنا الى حرب الكلام كدنا نتوهم أنفسنا جنوداً اشداء يواسل قاموا بواجبهم على خير وجه

انى سرحت البصر الفيت مرضى الكلام تغص بهم البلاد وتكاد عدواهم تصيب أرسخ الناس عقلا وأثبتهم جناناً . وابعدهم عن الخول والوهم

وانى لاعتقد أن داءهم قد أصبح وباء أفتك من السرطان والسل ، وان لا سبيل الى مطاردته الا بأن يقبع كل منا فى زوايته ويخلو الى عقله ويستجم فى عزلته ويفكر ثم يضع لنفسه برنامجاً عملياً ويسرع فى تنفيذه فقرة فقرة

ان من يعمل لا يتكلم . والعمل القوى الذى انضجه الفكر الهادىء الرصين هو وحده الذى يشفى من مرض الكلام

كلمات العصر الحاضر

Aphorismes du temps present

للدكتور جوستاف لوبون

اذاعت الصحف نبأ وفاة الدكتور جوستاف لوبون وجوستاف لوبون من المفكرين الفرنسيين الذين أصابوا قسطاً وافراً من الشهرة فى مصر . فقد عنى به كتابنا ، ونقلوا الى العربية معظم مؤلفاته ، ومن واجبنا اليوم أن نفيه حقه من البحث وأن ننظر فى أعماله نظرة شاملة تحدد مركزه وترسل ضوءاً ساطعاً على أفكاره وتعاليمه

ورغبة فى الوقوف على حقيقة شخصية الرجل آثرنا أن نلخص كتابه « كلمات العصر الحاضر » ففيه خلاصة فكره ومجموعة الآراء المبعثرة فى مختلف تواليفه

* * *

ان أول مايلفت الانظار فى كلماته تقسيمه الانسان الى عقل وخلق ، وقوله : « نحن لانهتدى فى سلوكنا اليومى بأحكام العقل بل بسلطان الخلق »

والخلق فى عرفه يتركب من المزاج وخصائص العنصر ومؤثرات الاسرة والبيئة والميل الخاص أى من قوى وراثية عاطفية بحتة تكسب الفرد شخصيات متعددة ، تضطجع فيه وتكمن فى طبيعته وتتحكم فى نفسه على الرغم منه ، فاذا ماتبدل خلقه فجأة تحت تأثير ظرف من الظروف ، فذلك أن احدى تلك الشخصيات العديدة الغامضة قد استفاقت فيه بغتة وتفوقت على سائر الشخصيات

وعليه فقد يتحل الفرد لاعماله اليومية أسباباً ومبررات عقلية ، ولكن هذه الاسباب ، انما ترجع فى الغالب الى تلك القوى العاطفية المسيطرة عليه والواقع — فى رأى جوستاف لوبون — أن الفرد لاينفك فى حياته العامة

يترجح بين عقله وعاطفته ، بين ماتمليه عليه ارادته العاقله وما تفرضـــه ارادته الباطنية الخفية الممثلة فى تفاعلات الوراثة والغريزة والعاطفة ، وهذا ما يفسر لنا مجموعة المتناقضات التى تبدو فى سلوكه اليومى

فالعاطفة وما يصدر عنها من شهوات وآلام وحب ورحمة وتضحيات وعقائد دينية أو اجتماعية هى التى تحل فى الافراد محل العقل ، وهى التى لو انتفت لتعطلت الحركة الانسانية واصابها الشلل

واليك بعض كلماته فى هذا الموضوع :

« ان المعرفة العلمية هى الباعث الأكبر لتقدم الحضارة المادى ، ولـكن العقائد العاطفية هى التى توجه الأفـكار والاحساسات وتنظم بالتالى سلوك الأفراد »

« ان المعرفة تحدد الحقائق ولـكن العقيدة تمثل الرغبات ، ولهذا يؤثر الانسان العقيدة على المعرفة »

« من الصعب أن نصادف رجلا مستعداً للتضحية بنفسه فى سبيل حقيقة عقلية. ولـكن من السهل أن تجد ألوفا يجودون بأرواحهم عن طيب خاطر من أجل عقيدة »

فالفـكرة المجردة التى لاتستند الى قاعدة عاطفية هى فى رأى جوستاف لوبون فكرة معدومة التأثير على الافراد والجماعات ، وما دامت لم تتصل بحياتهم الوجدانية فلا يمكن أن تنتشر وتنمو وتعيش

والتاريخ فى زعمه سلسلة حوادث وقعت خارج منطقة العقل وعلى نقيض مايأمر به العقل .. حوادث تتحكم فيها العواطف والميول والنزوات

فاذا شئت أن تخلق التاريخ فخاطب عواطف الجماهير . وليـكن نفوذك عليها مستمداً من احترامها لك وتهيبها اياك . واعجابها بك ودهشتها منك ، فهذه العوامل تسلس لك قيادها وتشعرك بأن لاقيمة للدعوة التى تروج لها بغير نفوذ أدبى وروحى

وليس للجماهير — عند لوبون — من منطق سوى منطق العاطفة . فهى أشد ماتكون استعداداً للقيام بأعمال البطولة والحماسة والعنف ، ولـكنها بعيدة كل البعد عن محاولة الاسترشاد بملـكات العقل الناقد البصير . وهى تطالب قبل كل شىء بالأمل ولا تستطيع أن تحيا بغير الأمل . وهى شديدة الرغبة فى الايمان

تستخفها الوعود الكبيرة والعلالات الخارقة ، وتذهب بلبها الجمل العاطفية الرنانة تصب فى قوالب مقتضبة عنيفة ، ومن خصائصها أنها تعبد القوة وتكره الرحمة وتبغض الضعف والضعفاء . أما قدرتها على ارتكاب الشر فلا حد لها

هذا هو رأى جوستاف لوبون فى الجماعات ومنه ندرك مذهبه فى التربية

ان قيمة الانسان فى نظره لاتقاس — كما يظن معظم أساتذة المدارس والجامعات — بنسبة علمه بل بنسبة مستواه الخلقى والعاطفى . اذ العلم لاشىء بدون تهذيب . والتهذيب هو الذى يكون الخلق وانه لمن الميسور — فى بضع سنين — أن نعلم رجلا همجيا ولكن تهذيب هذا الرجل وتكوين خلقه قد يقتضى عدة أجيال

واذن فلا يمكن أن يحل العلم محل الخلق ، ونحن اذا وزعنا العلم اعتباطا أفسدنا المواهب الطبيعية وأتلفنا الملكات المبتكرة الخالقة

والواجب أن نتوسل بالعلم لنبرز الفارق الأساسى بين فرد وآخر من مجموعة أفراد تلقوا تعليما واحداً ، أى يجب أن تكون غاية العلم اظهار الكفايات لاقتلها بواسطة أنظمة تعليمية تساوى بين الافراد والجماعات وتجعل من المدارس والجامعات أشباه مصانع أو ثكنات

ولكى نظهر الكفاءة الشخصية يجب أن نميز فى العلم بين فرد وآخر ، ونشجع صاحب الكفاية على استثمار مواهبه بأن نعمل ما استطعنا لتكوين خلقه . والسبيل الى تكوين الخلق هو معرفة الطريقة التى تمكننا من ادماج ملكات الفرد العقلية النامية فى ملكاته العاطفية الخفية . ومعرفة الفن الذى نخضع به عواطفه لاحكام عقله بحيث يستطيع أن يتسلط على مزاجه وغرائزه واهوائه ووراثته ويوجهها وجهة عقلية نافعة

وقيمة العقل أو التعليم هنا هى فى قدرته على كبح قوى العاطفة التى حبتنا بها الطبيعة وتنظيمها والانتفاع بها . ولن يكون ذلك الا بتدريب الصبيان على الملاحظة والاستقراء والتسامى بالعواطف والأفكار . أما حشد العلوم وتراكمها فى الاذهان فلا فائدة منه البته ، اذ العلوم تبنى أكثر مما تفسر ، وتحصى الظواهر أكثر مما

تعللها ، وتخلق من الأسرار أكثر مما تستوضح ، واعتماد الاستاذ عليها وحدها يوهم التلميذ أن العلوم التي يتلقاها حقائق مقطوع بصحتها فيضعف خلقه وتخنق فيه ملكات البحث والملاحظه

والفكرة التي يرمي اليها لوبون هي ألا تكون غاية التربية ملء الرءوس بشتى المعلومات بل ابراز الشخصيه ، وانماء مختلف العناصر التي تتألف منها : كالقدرة على التفكير والملاحظة والحكم والاعتماد على النفس والنشاط وضبط الأعصاب ، اذ هذه القوى العاطفية العقلية مندمجة هي التي تؤثر في مجرى الحياة اليومي ، وهي التي يتفوق بها فرد على آخر ويسوده ويحكمه

فكأن مذهب لوبون في التربية هو التوفيق بين العلم والخلق ، بين قوى العقل والعاطفه لكبح جماح العاطفة وطرد نزواتها ، وتغليب العقل عليها ، والعناية بمصلحة العقل وحدها

وهو انما يقيم التربية على ضرورة تغليب العقل ليهاجم حكم الجماهير القائم في زعمه على تغليب العاطفه المتهورة كما سنرى

* * *

وينتقل بنا الى الحديث عن علاقة أنظمة الحكم بالجماهير - وهو الجانب الخطير من تفكيره - فيقول ما دامت الجماهير سريعة الانفعال ، لا تعرف الرحمة ولا التسامح ، أبعد ما تكون عن العقل الهادىء الرصين ، ذات غضبات طارئة هائلة ، وتقلبات فجائية غريبة ، وامتثال للزعامة أعمى ، فمن مصلحة المجتمع أن يكبحها ما استطاع وأن يفرض عليها الخضوع لقوانينه ولو اضطر في بعض الاحايين الى اضطهادها اقراراً للسكينة وحفظا للنظام . . .

على أن هذه القوانين التي على الشعب أن يحترمها . ويذعن لها يجب أن تكون مستمدة من مجموع أخلاقه وعاداته ومزاجه وصفوة النزعات التقليدية السائدة فيه والا كانت مثار اضطراب وفوضى

ولا ينبغي أن يرتكز القانون على ارادة المشرع وعقله ونزعته الحزبية بل

على حاجة الشعب الماسة اليه . اذ لا فائدة من وضع المشرعين قوانين ـ بالغة ما بلغت من الرقى ـ لا تدعمها رغبات الجماعة وعواطفها

ولكن من ذا الذى يجب أن يضع القوانين فى رأى جوستاف لوبون ؟

أهو الفرد صاحب السلطة الاتوقراطية المطلقة أم الجماعة نفسها ممثلة فى البرلمانات ؟

من البدهى أن من لايؤمن بالجماعة لايؤمن بالنظام النيابى . وعليه فجوستاف لوبون يحمل على البرلمانات حملة هائله ويطعن الديمقراطية فى الصميم ويقول أن الهيئات النيابية مؤلفة فى العادة من أفراد غير متجانسين تجمعهم المصادفة وتعصف بهم النزعات والمنافع الخاصة ويسعى كل منهم لاقرار وجهة نظره فى شكل قانون يظنه نافعاً ولا يهتم بما اذا كان يتفق وميول الشعب واستعداده العقلى ودرجة الرقى التى وصل اليها . . .

يلوح لنا أن هذا هو جوهر فلسفة جوستاف لوبون الاجتماعية . فهو يسىء الظن بالطبيعة البشرية . ويرى فيها محض غرائز حيوانية وميول طائشة ويغلب العواطف فى الفرد والمجموع على العقل وينكر استطاعة المجموع التحرر من ربقة هذه العواطف ليتمكن من هدم كل نظام يقوم على حكم الجماعة وتتمثل فيه كما يزعم تلك العواطف التى ينفر منها والتى أرصد جهوده فى معظم تواليفه على محاربتها

لهذا فهو يدعو الى حكم طبقة الاعيان من حفظة الثقافة والتقاليد والثروات ولا ينفك يردد ان البرلمانات تمكن لسلطان العدد فتخنق الفكر السليم . وتعجز عن استبداله بقوة صالحة أخرى بينما طبقة الخاصة الممولين المثقفين هى التى — بتراثها القديم واعتيادها الحكم وامتلاكها موارد الثروة — تخلق الحضارات وتعرف كيف تحد من غرائز الشعب وتلطفها وتصقلها وتسيرها فى منهاج قويم

ومن كلماته : « ان الخاصة تبنى ولكن العامة تهدم » و « الشعب ينبوع قوى عظيمة ان لم تهذبها الخاصة وتنتفع بها استحالت الى عناصر بؤس وفوضى »

وعليه فمتى نشب الصراع بين الشعب والخاصة وكانت الغلبة للعدد فذلك هو النذير باضمحلال الحضارة وفنائها . . .

ويذهب جوستاف لوبون الى أبعد من هذا فينتصر للفرد على المجموع ويقول ان عقلية الافراد متى اجتمعوا كانت أضعف بكثير من عقلية الفرد المنعزل . وهى فكرة بسيطة فى ظاهرها ولكنها متى طبقت على أنظمة الحكم حلت فى تضاعيفها خلاصة الروح الارستقراطية ولباب أنظمة القرون الوسطى . . . .

أما نزعة المساواة الحديثة فيرى لوبون أن الطبيعة لا تعرفها وأن العالم لم يحقق مختلف ضروب التقدم البشرى الا خروجا على هذه المساواة . وما الظمأ الى المساواة فى نظره الا الدليل القاطع على كره الجماهير للشخصيات الممتازة ورغبتها فى أن يحكمها من هم على مثالها كفاءة ومقدرة

وبعد ان يمعن لوبون فى مهاجمة الديمقراطية ينهال بمعوله على الاشتراكية يحاول أيضا هدمها

والاشتراكية فى زعمه (حالة عقلية) وليست عقيدة وسر ضعفها كامن فى أنها تعد الناس بسعادة أرضية محضة . سعادة قائمة على استعباد الجماعات وفرض المساواة عليها فرضا وهكذا يخنق الاستقلال الشخصى ويفقد الفرد حب المجازفة وتتقلص روح المزاحمة وتعود الاشتراكية بالافراد الى عصور المساواة الأولى أى الى عهد بدائى ساذج منحط من عهود التطور البشرى

ومن كلماته فى هذا الموضوع ما معناه : « أن استهاضتنا عن مسئولية الفرد وعقله بمسئولية الجماعة وعقلها هبوط بالانسان الى أسفل درجات سلم القيم البشرية »

ولا يكاد جوستاف لوبون يفرغ من حملته على الاشتراكية حتى يرسم لك صورة هائلة مما يسميه الشروط الواقعية القاسية للنفس الانسانية فيقول : « أن الكفاح هو قانون الطبيعة العام ، وان الطبيعة لا ترحم الضعفاء . وان هذه القسوة الاصيلة هى التى أنشأت الحضارات . فمن واجب الشعوب والحالة هذه ألا تركن الى مبادىء السلم ودعاة السلام . اذ كل شعب مسالم مصيره الى التفكك والانحلال

ويلخص تعاليمه فى أمثال هذه الكلمات :

« لا مجتمع بدون سلطة قوية ذات نفوذ ثقافى ومالى كما أن لا نهر بدون شواطىء »

« مهمة العالم أن يحارب الاوهام ومهمة السياسى أن يستغلها »

« ان قمع الاضطرابات بقوة وسرعة أنجع من قمعها بضعف واستمرار »

« ليس فى وسع أى شعب ان ينقل انظمته الى شعب آخر الا اذا كان فى استطاعته ان ينقل اليه روحه »

« ان الحضارة تنتفع بالعلم ولكنها لاتقوم على العلم »

« ان روح الشعب الوراثية هى التى تتحكم فى تطوره . أما الانقلابات السياسية فلا تبدل هذه الروح ان هى غيرت من أشكالها »

* * *

تعليق

هذه صفوة آراء جوستاف لوبون ، نصادفها فى معظم دراساته مهما تنوعت الالفاظ التى يعبر بها عنها

وما يجب ان نفهمه فى مصر اليوم هو أن الرجل مفكر رجعى وأن السبب فى رجعيته تأثره بتعاليم بعض المفكرين الفرنسيين ذوى النزعات الارستقراطية والاتوقراطية

فعقليته فى مجموعها هى عقلية ما قبل الحرب وآراؤه هى الآراء التى كانت سائدة فى فرنسا قبل الحرب والتى اعتنقها وروج لها ذلك النفر من أدباء الفرنسيين اثارة لهمم مواطنيهم ورغبة فى مقابلة الروح الوطنية العسكرية الالمانية بروح فرنسية مثلها

فلوبون كان مفكراً نفعيا . ينظر الى مصلحة بلاده فى زمن خاص ولا يحفل بخدمة الفكر لنفسه . كان مفكرا ينشد فى الفكر المنفعة لا الحقيقة بدليل أنه تجاهل أو جهل القوى الخفية التى كانت تعمل عملها البطىء فى نفسيات الأمم ولم يفطن الى خطورة البواعث والحوافز الاقتصادية التى دفعت بأوربا الى الحرب وساقت شعوبها بالرغم منها الى التفكير فى ضرورة أشرافها التام على انظمة الحكم

وعليه فلم تكد تنتهى الحرب حتى شاهد الرجل بعينيه كيف تطورت العقلية الاوربية تطورا هدم آراءه واتجه اتجاها لم يكن يخطر قط له ببال

لقد حاول الانتقاص من حكم الجماعة بينما النظام فى اوربا وغير اوربا اليوم يتجه الى توطيد حكم الجماعة فهاهى المانيا قد استحالت الى جمهورية تتمثل فى

برلمانها أوفر وأشد العناصر الاشتراكيه تطرفا وهاهى اسبانيا ايضاً الى مثل هذا وهاهو حزب العمال فى انجلترا قد تمكن من الاضطلاع باعباء الحكم ، بل هاهى الميول الانسانية تحتل قلوب وعقول كبار مفكرى الغرب

وكل هذه الظواهر انما تدل على يقظة الجماعات ، واحساسها العميق بحقها فى تصريف شؤونها ، وعدم تسامحها فى ان يعبث رجال السياسة والمال بمصيرها ، وشعورها بأن الحرب الكبرى كانت نتيجة مطامع كبار أصحاب رءوس الاموال واستبداد بضع أفراد بمقاليد الحكم ، وما اوربا اليوم سوى ميدان فسيح تصطدم فيه ارادة الجماعات الحية الطامحة الى استكمال حقوقها واعادة تنظيم اوربا على أسس جديدة ، بارادة معظم رجال الحكومات واقطاب المال المستمسكين بتقاليد السياسة القديمة العاملين على البطش بالجماعات واخضاعها . ولكن فوز الجماعات فى النهاية امر محقق تدل عليه منذ الآن مختلف التقلبات التى تلوح فى الافق الاوربى

والواقع ان الضعف فى تفكير جوستاف لوبون يرجع الى استخفافه بالعوامل الاقتصادية فى الحياة العالمية واهماله بحثها والنظر فيما قد يترتب عليها من تبدل رئيسى فى أنظمة الحكم

وقد يكون انهيار الملكيات القديمة فى اوربا واضطراب الانظمة النيابية المستجدة فى بعض دولها وقيام شتى الديكتاتوريات من آثار الفوضى التى عقبت الحرب ومن أدلة تزعزع مبدأ السلطة — سلطة الخاصة — التى دعا اليها لوبون بالامس وما زال يدعو اليها المؤرخ الايطالى جوجليلمو فريرو حتى اليوم

ولكن لماذا نفرض أن مبدأ السلطة — كما كان يفهم فيما مضى — هو الذى لابد من توفره فى الحاضر والمستقبل كى ينتعش العالم وتعود اوربا الى سابق مجدها ؟

ألا يمكن أن تكون هناك سلطة جديدة اكثر ملاءمة للجماعات وتطورها الجديد وأجدر بتحقيق ميول الحاضر والمستقبل من سلطة الخاصة ورجال المال واصحاب الثقافة العتيقة الداعين الى تثبيت فوارق الطبقات العاملين على استعباد

الشعوب الصغيرة وتأليب الدول الكبيرة بعضها على بعض ولو هلك سواد الشعب

ان العامل الاقتصادى هو الذى يتحكم فى مستقبل الحضارة شاء جوستاف لوبون أولم يشأ ، والعامل الاقتصادى هو الذى سوف يخلق السلطة الجديدة التى لابد منها لانشاء حضارة جديدة ذات آداب وفنون جديدة

فلماذا ننظر دائما الى الماضى عند مانقدم على حل مشاكل المستقبل

إن العالم يسير نحو حضارة صناعية فردة لابد للكتلة العاملة التى انتجتها وابرزتها أن تفوز بقسطها الوافر من نعيمها وان تشترك فى ادارة نظامها العادل المبتكر المنشود . . .

وليس من شك فى ان الأزمة المالية التى نعانيها الآن هى نتيجة رقينا الصناعى واعتمادنا على الآلات فالآلة تقوم اليوم بما كان يقوم به بالامس عشرة من العمال أو أكثر . ولقد نشأ عن هذا التطور أن زادت مقدرتنا على الانتاج على نسبة مانستهلكه . فتكدست البضائع وشلت الاسواق وأصبح لابد من اغلاق أبواب المصانع ، ووقف حركة العمل وتشريد العمال والاستهداف لشر مايمكن أن ينجم عن هذا الاضطراب

فما الذى يمنعنا استناداً على مانشاهده الآن وعلى طبيعة حضارتنا الآلية من ان نؤمل فى اتجاه المجتمع يوما نحو تنظيم العمل تنظيما منصفاً جديداً بحيث تتعادل قوى الانتاج والاستهلاك فلا يشتغل العامل أكثر من اربع ساعات فيها الكفاية لتزويدنا بمانحتاج اليه ومنحنا من أوقات الفراغ مانستطيع أن ننفقه فى تهذيب عقولنا وغرائزنا وانماء خصائصنا الروحية التى يكاد يقضى عليها اليوم افراطنا فى العمل والانتاج على غير جدوى ؟ . . .

هذا هو التطور المنطقى المنتظر الذى لابد ان يقوم على اكتاف الجماعات والذى لم يعره جوستاف لوبون اى اهتمام

أما كلامه عن النظم النيابية وقوله ان الجماعات غير صالحة للحكم وانها لاتنفك تنقاد للعواطف فنزعة خبيثة ترمى فى الواقع الى قتل فكرة الحضارة . . . .

اذ ليس معنى الحضارة أن يتفوق الفرد على نفسه والمجموع حسب ، بل أن يتفوق المجموع أيضا برمته على نفسه اى على نزعات الاسراف والشطط والتقلب والتعصب وكل مايسميه لوبون عواطف طائشة

ولكى يتفوق المجموع على نفسه ويحقق غاية الحضارة المثلى لابد له من التطلع الى النظم النيابية الصحيحة وامتلاكها والتشبث بها وممارستها مهما أخطأ فى مبدأ الامر حتى يعتادها ويتكون فيه على مر الزمن احساسه بالحرية والتسامح والكرامة والمسئولية الحقه أى بالفضائل التى تخلق للجماعات الحاكمة تلك القوة العاقلة الناضجة المتزنة التى يأبى جوستاف لوبون الا ان يجعلها وقفاً على الخاصه

والمهم فى كل هذا اننا يجب الانفزع لغلطات شعب حديث العهد بالحكم النيابى فنعمل على حرمانه منه اذ الخطأ هنا طريق الصواب والسقوط سبيل النهوض . ومجرد الاضطلاع بالمسئولية يولد الشعور بالشخصية . ومعرفة استخدام الحرية فن محال ان نحذقه فى غير دائرة الحرية

وقدما كان روسو يقول ان الحرية هى التى تعلم الحرية !

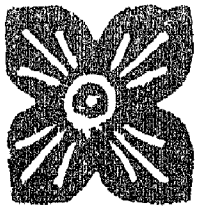

خيانة الكتاب

La trahison des clercs

لجوليان بندا

صدر فى فرنسا منذ بضعة أشهر كتاب أثار عاصفه من النقد انتصر له فريق من أكابر المفكرين وحمل عليه بعضهم حملات أكسبت مؤلفه (جوليان بندا) شهرة واسعة

وجوليان بندا كاتب اجتماعى باحث من أعمق كتاب الفرنسيين نظراً وأشدهم تأثيراً وأبعدهم مرمى وصدى

بدأ حياته الادبية بنشر قصة غرامية لم تصادف نجاحا كبيراً . فأردفها بكتاب سماه (بلفجور) وهاجم فيه مذهب (الرومانتسم) أى تحكم العواطف فى الاعمال الأدبية تحكما يشوه الواقع ويخرج بالأدب من دائرة الحقيقة الى فسحات الخيال المشوش المريض

واستطرد العمل فأخرج مؤلفاً آخر دعاه (البرجسونزم أو فلسفة الحركة) وتناول فيه بالبحث والتحليل نظريات الفيلسوف هنرى برجسون وجعل ينقدها نقداً هادئاً متزناً مراً ، ويدلل عن أن فلسفة برجسون القائمة على العاطفة وعلى استطاعة فهم الأشياء والاحساس بها عن طريق الغريزة أو الاشراق الروحى أو الاستشعار الوجدانى هى فلسفة مضطربة أقرب إلى الدين منها إلى الفلسفة . أنها ترد الحقائق إلى حكم العاطفة ونزعاتها المتقلبة دون العقل وأقيسته الواضحة ومنطقه الصارم الصريح

ولكن هذه الكتب على مافيها من دقة التحرى وروعة الأسلوب ومتانته ونصوعه لم تثر حولها تلك الضجة التى أثارها المؤلف الذى نريد التحدث عنه هنا والذى أسماه جوليان بندا (خيانة الكتاب)

obeikandl.com

دهش الأدباء لجرأة هذا المفكر وما اشتمل عليه مؤلفه من حملة هادئة على الكتاب جميعا

وهذه خلاصة ماجاء فيه :

يقول جوليان بندا أن الفكر العالمى أصبح فريسة النزعات الاجتماعية والسياسية ، وأن المفكرين الأحرار لم يعد لهم وجود ، وأن العصر الحديث لايطالب المفكر باستقلال الرأى وحرية البحث قدر مايطالبه بخدمة فئة محدودة وآراء متفق عليها . ونظريات مصطلحة مغرضة

فكتاب اليوم فى نظر جوليان بندا نزلوا عن استقلالهم وفرطوا فى شخصياتهم وخانوا عهد الفكر الحر الذى كان يجب أن يرصدوا جهد عقولهم للذود عنه

فالبعض منهم ينضوى تحت لواء حزب معين يعتنق مبادئه ويبشر بتعاليمه ويعمن فى الدفاع عنه ولو كان تطبيق تلك المبادىء والتعاليم يهدم الحقيقة البسيطة الظاهرة ، والبعض الآخر ينتصر لأمته ويتعصب لوطنه . ولا يقبل فى حق بلاده أى نقد يريد أن يسمو بعنصره فوق العناصر . وبثقافة أمته فوق الثقافات . وبحقوقها الخاصة فوق سائر الحقوق . يتملق شعور الجماهير ويلهب فيها غرائز التفوق والطمع والحرب والاستعمار غير متورع عن استخدام قدرته الأدبية وانشائه الرائع وفكره الوقاد لبث روح الحقد والاستبداد والتدمير

فالنزعات والميول السياسية كانت فيما مضى وقفا على رجال السياسة والحكم أما اليوم فقد انصرفت اليها أذهان الكتاب أنفسهم فأصبح لكل أديب رأى سياسى . ولكل مفكر حزب خاص . ولكل شاعر أو قصاص شعبة ينتمى اليها ويفخر بترويج الدعوة لها

فهناك كاتب محافظ وآخر جمهورى أو راديكالى . وغيره اشتراكى أو شيوعى . أما الكاتب الذى ينصب نفسه فوق الجميع محللا بعقله الفاحص فوق الجميع . متناولا كل مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية بالنقد الحر البرىء . محتفظا باستقلاله ، مشرفا على معركة الحياة فى حيدة تامة . داعيا لسيادة الفكر المطلقة . فذلك رجل يندر أن تجده بين كتاب هذا العصر النفعى

ويشير جوليان بندا الى ظاهرة أخرى خليقة بالبحث والاهتمام . وهى أن الأحزاب تنصر على الدوام من ينصرها سواء اكان نابغة أم عبقرياً أم من ذوى العقول العادية التافهة . فما تكاد تخرج المطابع كتاباً جديداً حتى ينقسم النقاد فى الحكم له أو عليه انقساما طائشا مغرضا فالناقد الاشتراكى يكيل المديح لقصة الروائى الاشتراكى . والناقد المحافظ يستقبل كتاب الأديب المحافظ بأروع مظاهر التهليل والناقد الشيوعى يصخب ويحمل على الاربعة معا . وهكذا تنتشر فوضى التقدير الأدبى ويلتبس الأمر على الجمهور فلا تكون النتيجة غير انصراف كل الى حزبه والاشادة العمياء بما يخرجه رجال هذا الحزب من مختلف الابحاث والقصص ودواوين الشعر والرسائل والمقالات

ويرى جوليان بندا أن مصلحة الأمة أو مصلحة الحزب هى التى تملى على الكتاب آراءهم . أما مصلحة الفكر وحده فآخر ما يعنون به

ويضرب الامثلة الوافرة على ذلك فيقول . ان أدباء ألمانيا أصدروا فى بدء الحرب منشورا يحرضون فيه الشعب الألمانى على القتال ويصورون له الحرب كعمل انسانى ممتاز عظيم وكضرورة من ضرورات نشر الثقافة الجرمانية التى يجب أن تسود العالم بقوة الحديد والنار

وكذلك فعل الشاعر كبلنج والروائى شسترتون فى انجلترا

أما فى فرنسا فعواطف الحقد والكراهية من نحو العنصر الجرمانى والتبشير بسياسة الغزو والاستعمار والنعرة الجنسية السخيفة المزعجة قد وجدت فى أمثال (موريس باريس) و (شارل موراس) و (ليون دوديه) و (بول بورجيه) واضرابهم كتابا أشعلوا جذوتها فى صدور الفرنسيين وما زال معظمهم يروج لها ويعد شعبه لحرب جديدة طاحنة

ولا يقصر جوليان بندا هجومه على هذا الفريق بل يحمل على الكتاب الاشتراكيين والشيوعيين أيضا فينسب لهم نفس التعصب لمبادئهم التى استحالت فى نفوسهم عقائد دينية لا تقبل الجدل

فيندد بانسياقهم لرؤساء أحزابهم وعبوديتهم لشتى القرارات التى تصدرها تلك الأحزاب

فلو أفرط الحزب فى تطبيق مبادئه افرطوا فى تبرير مسلكه . ولو ارتاى انتهاك حرمة الحرية ناصروه ونقموا على الحرية . ولو توسط واعتدل توسطوا مثله واعتدلوا فهم أبواق لأحزابهم وهم فى عرف جوليان بندا (دعاة) وليسوا كتاباً . . .

ولنا أن نتساءل ما تلك المهمة التى يريد بندا القاءها على عاتق الكاتب ؟ وما هى شخصية الكاتب فى نظره ؟

ولماذا يسمى أولئك الأدباء دعاة فقط ؟ ولماذا يتهم كبارهم بالخيانة ؟

ان الكاتب فى رأى بندا هو الرجل المستقل . السابح فى اجواء الحقائق المطلقة الباحث فى اطراد وثبات ونزاهة واخلاص عن المثل العليا

هو خادم الحق والعدالة والجمال والحرية . هو الذى لا يضحى بنفسه من أجل افراد بل من أجل الانسانية . هو الذى يعمل لسيادة الفكر اذ الفكر يجب أن يهيمن على شؤون البشر وأن يظل بمعزل عن الميول الحزبية المشوشة المتخبطة القاسية . يكبح من جماحها . ويكسر من شرتها ، ويردها الى السبيل السوى . سبيل المحبة والرحمة والانصاف والحقيقة

وله أن يكون وطنى النزعة أو اشتراكى العاطفة . ولكن متى تبين له أن أمته نفسها عاتية ظالمة فباسم الحق والحرية يجب أن يثور على أمته ويفضح الظلم

ومتى تبين له أن الاشتراكيين يسيئون فهم مذهبهم ويسرفون فى تطبيقه اسرافا يتعارض ومطالب الحق والرحمة والعدل . فباسم الحق والرحمة و العدل يجب أن يقاومهم

تلك هى سيادة المفكر وسيادة الفكر .

وقد يعرض هذا الموقف صاحبه للاخطار . ولكن الكاتب الصحيح هو الدائم التاهب لاحتمال شتى ضروب العسف والذل والاضطهاد عن طيبة خاطر وتقبل الموت بثغر باسم فى سبيل حرية الفكر والضمير

ان فولتير وقد شهر بالظلم المحدق (بكالاس) خرج على بيئته ودافع عن المتهم أحر دفاع . وأميل زولا . وقد أيقن ببراءة الضابط دريفوس لم يتوان لحظة

واحدة فى الخروج على أمته واتهامها بالتعصب والجور والانتصاف للضابط المظلوم فى تلك الرسالة الرائعة (أنى أتهم) .

وليون تولستوى — بطل الاشتراكية الروحى — ثار على الأنظمة والتقاليد جميعاً ونصب نفسه المدافع الجرىء الجبار عن حق الانسانية فى السعادة . وحق طبقات الشعب المستعبدة فى الحرية والمساواة

ورومان رولان - بطل السلم - لم يشأ ان يلوث يديه بدم أخيه الانسان ففر من خدمة الجيش . ونزح الى الأراضى السويسريه . وظل هناك يشن حربا قلمية هائلة على الحكومات المتمولة المستعمرة التى أشعلت نار الحرب الأخيرة فى أوربا

أولئك الكتاب وأمثالهم دافعوا عن حرية الفكر وحرية الانسان واستهدفوا للسجن والنفى والتشريد والموت . فادوا الأمانة أهلها وأوفوا بما للحضارة عليهم من فروض ولم يخونوا العهد بل كانوا كتابا عظاما مخلصين !

تلك هى صفوة الآراء التى اشتمل عليها مؤلف جوليان بندا النفيس (خيانة الكتاب) وهى كما ترى دعوة حارة الى سيادة الفكر وحريته بل الى الحرية ذاتها من حيث هى قاعدة الحضارة والتطور

ولا ينبغى ان يفهم أدباؤنا مما تقدم ان انتماء الكاتب الى أى حزب هو خيانة للفكر . كلا

فمتى كان الحزب يبشر بفكرة الحرية فالانضواء تحت لوائه واجب والعمل فى سبيله نعم العمل ونعم الجزاء ! ! .

obeikandl.com